

العنوان:	ابن حزم أديبا وناقدا
المؤلف الرئيسي:	شياب، فضل الله محمد
مؤلفين آخرين:	عباس، بشير(مشرف)
التاريخ الميلادي:	1999
موقع:	الخرطوم
الصفحات:	1 - 253
رقم MD:	915197
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة النيلين
الكلية:	كلية الآداب
الدولة:	السودان
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	إبن حزم الاندلسي، علي بن احمد بن سعيد، ت. 456 هـ، التراجم، الشعراء الأندلسيون، النقاد العرب، الدواوين والقصائد
رابط:	<a href="http://search.mandumah.com/Record/915197">http://search.mandumah.com/Record/915197</a>

للاستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب أسلوب الاستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

شياب، فضل الله محمد، و عباس، بشير. (1999). ابن حزم أديبا وناقدا (رسالة دكتوراه غير منشورة). جامعة النيلين، الخرطوم. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/915197>

إسلوب MLA

شياب، فضل الله محمد، و بشير عباس. "ابن حزم أديبا وناقدا" رسالة دكتوراه. جامعة النيلين، الخرطوم، 1999. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/915197>

# الباب الأول

## ابن حزم شاعراً

## ابن حزم شاعراً

يعتبر شعر ابن حزم بحق معرضاً لكثير من آرائه وأفكاره ونفثات وجدانية باح بها فيما مرّ به من ظروف وانتابه من أحداث. وهو متعدد المواهب متنوع الجوانب في عطائه، ومن أفضاذا الأندلس وأعلام العرب. إن ابن حزم قد قرض الشعر في سن مبكرة وهذا باعترافه هو شخصياً إذ يقول: "لقد عرض لي في الصبا هجر مع بعض من كنت آلف على هذه الصفة وهو لا يلبث أن يضمحل ثم يعود، فلما كثر ذلك قلت على سبيل المزاح شعراً بديهياً ختمت كل بيت منه بقسم من قصيدة لطرفة بن العبد المعلّقة، وهي التي قرأناها مشروحة على أبي سعيد الفتى الجعفري ٠٠٠ في المسجد الجامع بقرطبة، وهي:

تذكرتُ ودّاً للحبيب كأنه      لخولة أطلالٌ ببرقةٍ ثمهد  
وعهدي بعهدٍ كان لي منه ثابتٌ      يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد  
وقفتُ به لا موقناً برجوعه      ولا آيساً أبكي وأبكي إلى الغد  
إلى أن أطل الناس عذلي وأكثروا      يقولون: لا تهلك أسى وتجلّد<sup>(١)</sup>

ونستشف من هذا القول، أن شاعرنا كان معتداً بنفسه واتقاً من شخصيته على الرغم من صغر سنّه، وذلك حينما وضع نفسه في مرتبة الشاعر الجاهلي الكبير لطرفة، وراح يختم كل بيت من قصيدته بشطر من معلّقة، كما نستنتج من ذلك أن صاحبنا كان يتمتع ببديهة سريعة، وقدرة كبيرة على ارتجال الشعر. وإذا كان الشعر العربي في الأندلس يتجه دائماً إلى المشرق، متخذاً من شعرائه مثله الأعلى، فإنه لم يصل إلى أوجه الكامل وسمته الجمالي إلا في القرون العاشر الميلادي الذي يقترن بقيام الخلافة الأموية الأندلسية عام ٣١٧هـ -

(١) رسائل ابن حزم الأندلسي. تحقيق د. احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات

والنشر، ط ١، ١٩٨٠، ج ١، ص ١٩٤.

٩٢٦م<sup>(١)</sup> في النشاط الأدبي والعلمي الخالصين. وشاعرنا ابن حزم عاش في خضم هذه الأحداث والأضواء الأدبية والسياسية منذ نعومة أظفاره، وأشرب عصارته، إلى جانب أنه أتيح له تربية خاصة بين الجواري يعلمنه، ويتقنه رواية الشعر وحفظه، وتذوقه، وأتيح له أيضاً وهو في باكورة شبابه أن يشهد بعض المجالس الأدبية في مقر العامريين مع أبيه الوزير الأديب، كل ذلك جعل شاعريته تتفتح قبل بلوغ الحلم. ومما تجدر ملاحظته هنا، أن كل مقطوعات ابن حزم الشعرية التي قالها قبل بلوغه سن الحلم ووصلت إلينا كانت في الغزل<sup>(٢)</sup> وهذا يدفعنا إلى القول إن شاعرية ابن حزم المبكرة قد جاءت تصعيداً لذلك النشاط الوجداني المحظور عليه بالرقباء والمثل الدينية العليا، وفي مثل هذا المعنى يقول د. سامي الدروبي: "إن معظم صور التصعيد ذات طابع عاطفي يرجع إلى مقدار العاطفة التي ظلت غير مستعملة بسبب كبت الغريزة الجنسية، فهذه العاطفة تتصرف بالتعويض إلى مثل عليا "الشعر والدين وأعمال البر" (٣).

ولعل ذلك ما جعل شاعرنا يرى في الشعر منذ وهلته الأولى الوسيلة المثلى التي يعبر بواسطتها عن أحاسيسه ومشاعره تعبيراً وجدانياً صادقاً، ويجلو لنا من خلاله نفسه وخباياها في حالة فرحها وحزنها وبكائها، ومن أمثلة ذلك قوله:

"وفي المذاهب الذي عليه الناس أقول قصيدة قلتها قبل بلوغ الحلم، أولها:

دليلُ الأسي نارُ على القلبِ تَلْفَحُ      ودمعُ على الخدين يَهْمِي وَيَسْفَحُ  
إذا كتم المشغوفُ سرّاً ضلوعِهِ      فإنّ دموعَ العينِ تبدي وتَفْضَحُ  
إذا ما جفونُ العينِ سالت شئونها      ففي القلبِ داءٌ للغرامِ مُبَرِّحُ"<sup>(٤)</sup>

(١) الشعر الاندلسي، اميليو غرسيه غومس، ترجمة حسين مؤنس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

القاهرة (ط١) ١٩٥٢، ص ٣٤.

(٢) ينظر تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، احسان عباس، المطبعة التجارية بيروت (ط١)

١٩٦٠ ص ٢٦٠.

(٣) علم النفس والأدب، سامي الدروبي، دار المعارف، مصر سنة ١٩٧١ (بدون ط) ص ٢٣٠.

(٤) الرسائل، ج ١، ص ١١٣.

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما قاله في جارية جميلة ألفها أيام صباه، وكانت تعيش معهم في دارهم، وقد سعى قرابة عامين في أن تجيبه بكلمة، غير أنه لم يصل إلى ذلك البتة فأنشد: (١)

مَنَعْتَ جَمالَ وَجْهِكَ مُقَلَّتِيَا      وَلَفْظُكَ قَدْ ضَنَنْتَ بِهِ عَلِيَا  
أَرَاكَ نَذَرْتَ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا      فَلَسْتُ تَكَلِّمِينَ الْيَوْمَ حَيَا  
وَقَدْ غَنَيْتَ لِلْعَبَّاسِ شِعْرًا      هَنِيئًا ذَا لِعَبَّاسٍ (٢) هَنِيَا  
فَلَوْ يَلْقَاكَ عَبَّاسٌ لِأَضْحَى      لَفُوزٍ (٣) قَالِيَا وَبِكُمْ شَجِيًا

ومما سبق نستنتج أن ابن حزم كان يستبدل بما كانت تطمح إليه أهـواؤه، وتلميه عليه نزواته أهدافاً أخرى ذات قيمة اجتماعية وعلمية متمثلة في قصائد أو مقطوعات من الشعر، يضمنها ما كان يعتلج في نفسه من شوق وحرمان وأسى. وتعد هذه المحاولات الأولى بداية ميلاد شاعرنا في عالم القريض، وقد ساعدته على ذلك موهبته الفذة التي كانت خير أداة لخلق شاعريته المبكرة، وإمدادها بالقوة المبدعة منذ صباه، ولعلّ هذا ما دفع تلميذه الحميدي إلى القول عنه: "كان له في الآداب والشعر نفس واسع، وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه وشعره كثير" (٤) إلا أن هذه الموهبة وحدها - كما أعتقد - لم تكن لتخلق وحدها شاعراً مثل ابن حزم، ومن هنا ينبغي علينا أن نحدد الروافد الأساسية التي ساعدت في تنميته وصقل موهبته الخصبة، وجعلت منه شاعراً مجيداً.

لقد أسهمت بيئة ابن حزم الخاصة إسهاماً كبيراً في تعليمه الأولي فالعصر الذي عاش فيه والبيئة التي ترعرع فيها، والفطرة التي فطر عليها قد أتاحت له فرص الدرس المبكر، فتعلم في صباه ما يتعلمه أبناء الوزارة آنذاك من حفظ

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٥١.

(٢) هو أبو الفضل العباس بن الأحنف الشاعر المشهور، توفي سنة ١٩٢هـ، وقيل بعد سنة ١٩٣هـ ينظر

وفيات الاعيان لابن خلكان، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر، بيروت، ج ٣/ص ٢٠-٢٧.

(٣) هي جارية كان العباس بن الأحنف قد أحبها - ينظر الأغاني لأبي فرج الاصفهاني، تحقيق: علي محمد

البجاوي- الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠ مج ٩/ص ٦٧.

(٤) جذوة المقتبس، للحميدي ص ٢٩١.

القرآن الكريم، وأشعار العرب، والتدرب في الخط. وقد كان ذلك كله على أيدي نساء مثقفات متعلمات وهذا بشهادة منه إذ يقول: "هَنْ عَلِمْنِي الْقُرْآنَ وَرَوَيْتَنِي كَثِيراً مِنَ الْأَشْعَارِ، وَدَرَبْنِي فِي الْخَطِ"<sup>(١)</sup>.

وهذا الخبر يدلنا دلالة واضحة على الجو الديني والعلمي الذي فرضه أحمد بن سعيد على ولده باعتباره أستاذه ومربيّه الأول؛ إذ كان من أهل العلم والأدب، بليغاً متعصباً للغة العربية. لذلك أخذ للمجالس، وكان أول مجلس له مع الرجال يوم عيد الفطر من سنة ٣٩٦هـ، وذلك في مجلس الحاجب عبد الملك المظفر، حيث كان أبو العلاء صاعد ينشد قصيدته التي يقول فيها:

إِلَيْكَ حَدُوثُ نَاجِيَةِ الرِّكَابِ، مَحْمَلَةٌ أَمَانِي كَالْهَضَابِ،

قال ابن حزم: "وهو أول يوم وصلت فيه إلى حضرة المظفر ولما رأي أبي العلاء استحسناها وأصغى إليها وكتبها لي بخطه وأنفذها إلي"<sup>(٢)</sup>.

وهكذا اندفع ابن حزم إلى طلب العلم والتوسع فيما كان قد حصل عليه من معرفة على أيدي الجواري، فتتلمذ على أيدي شيوخ في الحديث، وشيوخ في الفقه، وأساتذة في الفلسفة وإلى جانب هذا لازم أعلام الأدب والشعر في عصره وأخذ عنهم أقوال العرب وحكمهم وحفظ المهم من خطبهم البليغة واستظهر الكثير من أشعارهم وفهم معانيها، واستوعب غريبها حتى قويت ملكته، واستقام بيانه، فنظم الشعر، وكتب الرسائل. ومن شيوخه في هذا المجال: أبو سعيد المفتي الجعفري، وحسان بن مالك بن أبي عبيدة وهو من الأئمة في اللغة والآداب، وسعيد المفتي حيث كان معلماً لشاعرنا وأستاذاً، يعلمه صناعة الشعر ويرسم له الطريق ويأخذ بيده إليه. وغيرهم الكثير من الشيوخ.

ولم تكن صلة ابن حزم الأدبية مقصورة على المجالس الرسمية في حضرة المظفر وغيره، بل كانت تتجاوزها إلى مجالس أخرى أكثر نشاطاً وحيوية بإشراف أهل صناعة اللحن والغناء من الجواري، حيث كن يقترحن عليه أن ينظم لهنّ

(١) الرسائل، ج ١، ص ١٦١.

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق.

١٩٧٨، ص ٣٤٠.

بعض المقطوعات الشعرية حتى يضعن منها أصواتاً يغنين فيها ومن أمثلة ذلك هذه المقطوعة التي يقول فيها:

خلّ هذا وبادرِ الدهرَ وارحلْ	في رياضِ الرُّبى مطيَّ العُقارِ
وأخذها بالبدیع من نغمات	العود كيما تُحَثُّ بالمزمارِ
إن خيراً من الوقوف على	الدار وقوفُ البنان بالأوتارِ
وبدا النرجسُ البديع كصبّ	حائرِ الطرفِ مائلاً كالمدارِ
لونه لونُ عاشقٍ مُستهامٍ	وهو لا شكَّ هائمٌ بالبهارِ <sup>(١)</sup>

وعن مناسبة هذه المقطوعة يقول الشاعر: وكان سبب هذه الأبيات أن ضنى العامرية، إحدى كرائم المظفر عبد الملك بن أبي عامر، كلّفتني صنعتها فأجبتها، وكنت أجلّها ولها فيها صنعة في طريقة النشد والبسيط رائقة جداً<sup>(٢)</sup>.

ويبدو أن ابن حزم كان يعجب كثيراً بالأدب الجاهلي، واتخذ منه مدداً وعوناً، وتأثر به تأثراً متفاوتاً، والتمس منه في أفكاره ومعانيه وشعره ما يعزز اتجاهه الأدبي وهذا ما نستشفه من مقطوعته التي قالها في صباه وضمّتها أقساماً من معلقة طرفة، التي قرأها على سعيد المفتي.

وإلى جانب الموهبة والعلم اللذين رفدا شاعريته المبكرة، فقد كان يتمتع بشخصية محببة وقلب كبير، وشعور مرهف دقيق، له حساسية فعالة وعجيبة في تلقي السرور والآلام، كما كان شديد التأثر بالجمال والصبابة مما جعله لا يختار وقتاً معيناً لقول الشعر، فأحياناً كان يشعر وهو نائم وأحياناً ينظم بعد صلاة الصبح وفي ذلك يقول:

"وأقول أيضاً قطعة، ثلاثة أبيات قلّتها وأنا نائم، واستيقظت فأضفت إليها البيت

الرابع:

ألا لله دهرٌ كنت فيه أعزّ	عليّ من روعي وأهلي
فما برحت يدُ الهجرانِ حتى	طواك بنانها طي السجلِ
سقاني الصبرَ هجرُكم كما قد	سقاني الحبَّ وصلُكم بسجلِ

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٥٥.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ٢٥٥.



وجدتُ الوصلَ أصلَ الوجد حقاً وطُولَ الهجر أصلًا للتسلي<sup>(١)</sup>  
وخلاصة القول إن ابن حزم قد بدأ نظم الشعر في سن مبكرة، وتلك - كما  
يبدو لي - هي العوامل والمؤثرات العامة التي - مدت شاعريته الخصبة وجعلت  
منه شاعراً مجيداً طبقت شهرته في الشعر الآفاق.

## القسم الأول

### أغراض شعره:

طرق ابن حزم أبواباً كثيرة في شعره، فجاء شعره متنوع المعاني، متعدد  
الأغراض، وهو في مختلف أبوابه، يرتبط بحياته الارتباط كله، ويصور فيه  
تجاربه الخاصة في الحياة، وملاحظاته ومشاهداته، وهو نتاج ثقافته وفكره، فأحياناً  
نراه تعجبه فكرة فيحallها شعراً في غير عناء.

ولعل ذلك يعود في أصله إلى انفراده في عهده بميزة النظر التحليلي إلى  
النفس الإنسانية بالإضافة إلى استقلالية الفكر التي كانت تميز شخصيته فيما يتناوله  
في شعره من الحياة الاجتماعية والمعاني النفسية والفلسفية، فكانت الأفكار "هي  
قوام الأشعار لدى ابن حزم، والعقل هو الذي يلف أكثر أدبه وذلك بحكم تكوينه  
الفكري والعقلي"<sup>(٢)</sup>.

ولما كانت دراستنا لابن حزم كشاعر تستلزم الحديث عن كل جوانبه  
الشعرية أثرنا أن نشير إلى أن هناك صعوبة تعترضنا في دراسة شعره وهذه  
الصعوبة تتجسد في ضياع الكثير من نتاجه في هذا الميدان، خصوصاً ديوانه الذي  
جمعه تلميذه الحميدي على حروف المعجم<sup>(٣)</sup> - كما قال - ولم يصل إلينا منه إلا  
بعض المقطعات الصغار، وأبيات متناثرة في جذوة المقتبس، وفي شرح الشريشي  
على مقامات الحريري، وفي الغيث المسجم للصغدي، وفي طبقات الشافعية  
للسبكي، وكذلك في بعض الكتب التي ترجمت له مثل الصلة والمغرب ومعجم  
الأدباء لياقوت الحموي.

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٤٨.

(٢) ملاح الشعر الأندلسي، عمر الدقاق، ص ١٢٠.

(٣) ينظر الجذوة، للحميدي ص ٢٩١.

ويعدّ كتابه "طوق الحمامة" المصدر الأساسي الذي اعتمدناه في دراستنا لأغراضه الشعرية وتحليلها. غير إن هذا الكتاب - على الرغم مما قدم لنا من عون في هذه الدراسة - يبقى ناقصاً في إعطاء فكرة كاملة عن حياة صاحبنا الشعرية وذلك لسببين اثنين:

الأول: إن طوق الحمامة يمثل المصدر الرئيسي لشعره الذي نظمّه قبل الثلاثين من عمره وهذا قليل إذا ما اعتبرنا أن شاعرنا ظل يعاود قول الشعر حتى شيخوخته.

الثاني: إن كتاب الطوق نفسه لم يسلم من تصرف يد الناسخ فيه، وهذا باعترافه هو إذ يقول: "كملت الرسالة المعروفة بطوق الحمامة لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم رضي الله عنه، بعد حذف أكثر أشعارها وإبقاء العيون منها، تحسیناً وإظهاراً لمحاسنها، وتصغيراً لحجمها وتسهيلاً لوجدان المعاني الغريبة من لفظها"<sup>(١)</sup>.

ومن خلال ما تقدم فإن موسوعية ثقافة ابن حزم، وطبيعة الظروف التي عاشها وصروف الدهر التي عانى منها، لوّنت شعره ونثره، وإن كان شعره هو الميدان الأوضح لتلك الحياة حيث بثّ ثقافته الروحية عبر قصائد ومقطوعات وأبيات قالها. وليبيان ذلك نحاول التعرف على شعره في كل فنّ من الفنون التي كتب فيها، ومقدار ما بلغه من جودة فيه، وعلى رأس هذه الفنون يأتي الغزل .

---

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٩٦.

اختلطت عليه المحبة بالشهوة، والشهوة لا تسمى حباً على التحقيق، بل على المجاز فقط. ولشاعرنا في هذا المعنى أبيات يقول فيها:

كَذِبَ الْمُدَّعِي حَبًّا اثْنَيْنِ حَتْمًا      مِثْلَ مَا فِي الْأَصُولِ أَكْذِبَ مَا نِي  
لَيْسَ فِي الْقَلْبِ مَوْضِعٌ      لِحَبِيبَيْنِ وَلَا أَحَدَتْ الْأُمُورِ اثْنَانِ  
فَكَمَا الْعَقْلُ وَاحِدٌ لَيْسَ يَدْرِي      خَالِقًا غَيْرَ وَاحِدٍ رَحْمَانِ  
فَكَذَا الْقَلْبُ وَاحِدٌ لَيْسَ يَهْوِي      غَيْرَ فَرْدٍ مُبَاعِدٍ أَوْ مُدَانِ  
هُوَ فِي شَرَعَةِ الْمُوَدَّةِ ذُو شَرِكٍ      بَعِيدٍ مِنْ صَحَةِ الْإِيمَانِ  
وَكَذَا الدِّينَ وَاحِدٌ مُسْتَقِيمٌ      وَكَفُورٌ مَنْ عِنْدَهُ دِينَانُ<sup>(١)</sup>

واضح من هذه الأبيات أن ابن حزم كان يؤمن بوحداية الحبيبة، كإيمانه التام بوحداية الله والدين، وهو لهذا يحمل بشدة على القائلين بإمكانية الجمع بين حب اثنين في وقت واحد.

ومن المبادئ الأخرى التي اعتمدها شاعرنا في تكوين مذهبه رفضه لفكرة أن يكون للمحبة سبب من الأسباب، لأن تلك في نظره تفنى بفناء سببها، بينما الحب الدائم هو الذي يكون علّة نفسه، بعيد عن أي طمع مادي، وهذا الذي سار عليه ابن حزم وفي ذلك يقول:

وَدَادِي لَكَ الْبَاقِي عَلَى حَسَبِ كَوْنِهِ      تَنَاهَى فَلَمْ يَنْقُصْ بِشَيْءٍ وَلَمْ يَزِدْ  
وَلَيْسَتْ لَهُ غَيْرُ الْإِرَادَةِ عِلَّةٌ      وَلَا سَبَبٌ حَاشَاهُ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ  
إِذَا مَا وَجَدْنَا الشَّيْءَ عِلَّةً نَفْسِهِ      فَذَلِكَ وَجُودٌ لَيْسَ يَفْتَنِي عَلَى الْأَبَدِ  
وَأَمَّا وَجَدْنَاهُ لَشَيْءٍ خِلَافَهُ      فَبِعَادَمَتِهِ فِي عَدَمِنَا مَالَهُ وَجِدٌ<sup>(٢)</sup>

وهكذا نرى أن ابن حزم يؤمن إيماناً كبيراً بعفاف العاطفة، وارتفاعها عن موضع الشهوة، مما يجعله من أنصارها الذين يريدون بالحب معنى لا يختلط بالغريزة ولا يقع في رحابها.

(١) الرسائل، ج ١، ص ١٢٧.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ٩٥.

البعاد، وقسوة الفراق، وخوف العوازل واللائمين والشامتين، وانشغال المحبوبة عنه وتدلّ لها عليه، ونكد الأيام التي برحت به<sup>(١)</sup>.

ومن هنا لا يمكن أن نعد شعر ابن حزم في هذا الفن شعراً عذرياً بالمعنى الذي أشار إليه الدكتور عبد المنعم البهي، وتعليلنا لذلك يكمن في افتقار غزل شاعرنا إلى خاصية هامة من خصائص الغزل العذري، وهي تعلّقه بامرأة واحدة يقصر عليها شعره حتى الموت، كما هو الشأن لجميل بن معمر - مثلاً - أو قيس بن ذريح، أو قيس بن الملوّح المعروف بمجنون ليلى. ومن ثمّ فإن تسمية غزله بالعفيف تبدو أكثر دقة من تسميته غزلاً عذرياً.

وبعد هذه الإشارات التي كان لابدّ منها حول قضية العفة والعذرية في غزل شاعرنا، نعود إلى الحديث عن شعره في هذا المضمار فنقول قد لا نبالغ إذا قلنا إنّ عفة صاحبنا مدرسة تصوّر حال المحب العفيف، أصدق تصوير ففيها بكاء العاشق الصادق، وشقاء القلب الملتهب، وعذاب النفس المتصدعة ولوعة المتفجع والشكوى والتلهف، واليأس والقنوط، ولعل خير ما يترجم ذلك قوله:

هل لقتيل الحبّ من وادي	ام هل لعاني الحبّ من فادي
أم هل لدهري دعوة نحوها	كمثل يوم مرّ في الوادي
ظلت فيه سابحاً صادياً	ياعجباً للسابح الصّادي
ضنيت يامولاي جداً فما	تبصّرني الحاظ عوّادي
كيف اهتدى الوجد إلى غائب	عن أعين الحاضر والبادي
ملّ مداوتي طيبي فقد	يرحمني للسقم حسّادي <sup>(٢)</sup>

فالأبيات - كما يظهر - تصوير لخلجات الشاعر وأحاسيسه الأليمة بلغة مشحونة بعواطف الحزن واليأس وأصدق تعبير عن حاله ما جاء في البيت السادس من هذه المقطوعة، حيث عبّر عن حبه بشدة مرضه، وملل الطبيب المداوي. وكأنني بالشاعر أراد أن يقول: أتوني بحبيبتني فإنّها دائي ودوائي وقد جاء الاستفهام

(١) دراسات في الأدب والنقد والبلاغة. أحمد عبد المنعم البهي، القاهرة - مطبعة الناشر العربي (بدون ط)

سنة ١٩٥٩، ص ٥٩.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ١٩٠.

فهم أبداً في اختلاج الشكوك بظنٍ كَقَطْعٍ وَقَطْعٍ كَظْنٍ<sup>(١)</sup>.

جاءت الأبيات كما نرى تصويراً جميلاً وبسيطاً لحال شاعرنا المغوم، وإن لم يكن ثمة ابتكار يذكر في المعاني، أو تجديد في الصّور، اللهم بعض التشبيهات التقليدية مثل (النحول كالخط المرسوم) و (ترجيع الحمام). في حين تبدو شخصيته الفقهية ومنحاه العقلي بارزين في القصيدة لاسيما في البيتين الأخيرين، إذ تتجلى فيهما، روح الإصرار والثبات على المواقف، وطبيعة مزاجه الحاد المتمرد.

وقد تميز الشاعر بقوة العاطفة، والحب الجارف، حتى وكأنه أسير النزعة العاطفية، وهذا ما نلمسه في قوله: "لقد ضمتني مجلس مع بعض من مرادي، وغير شاف وجدي، ولا قاض أقل لبانة من لباناتي، ووجدتني كلما ازددت دنواً ازددت ولوعاً وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي"<sup>(٢)</sup>.

هذا الوصف لنفسية ابن حزم يقودنا إلى القول: إن شاعرنا كان في منتهى الرقة ورهافة الإحساس، ولعل ذلك ما جعله يتمنى أن تظل حبيبته قريبة منه، بل أن يسكنها قلبه ويستحوذ عليها لنفسه:

وَدِدْتُ بَأَنَّ الْقَلْبَ شَقَّ بِمَدْيَةٍ وَأَدْخَلْتُ فِيهِ ثُمَّ أَطْبَقَ فِي صَدْرِي  
فَأَصْبَحْتُ فِيهِ لَا تَحْلِينَ غَيْرَهُ إِلَى مُقْتَضَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْحَشْرِ  
تَعِيشِينَ فِيهِ مَا حَيِّتُ فَإِنْ أُمْتُ سَكَنْتِ شَغَافَ الْقَلْبِ فِي ظِلِّ الْقَبْرِ<sup>(٣)</sup>  
إن هذه الأبيات ليست مجرد مقطعاً غزلياً بقدر ما هي عرض لأزمة ابن حزم النفسية وبالتالي فما يبدو فيها من مشاعر الحنان والشوق لا يجب أن يكون كل شيء عند قراءتها، وإنما يجب أن ينظر في العمق النفسي الذي يتخفى وراء هذا الغزل والذي يكشف عن موقف صاحبنا الحقيقي تجاه المرأة التي وراء هذا الغزل والذي يكشف عن موقف صاحبنا الحقيقي تجاه المرأة التي يحب، وعلى عاطفته المركزة وانفعاله الحاد، وعن رغبته اللامتناهية في المزيد من حبها. ويدل على ذلك كله إصراره على بقائها في قلبه، لا تحل قلباً غيره. فهي في نظره ملك

(١) الرسائل، ج ١ ص ١٤٦-١٤٧.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ١٨٤.

(٣) الرسائل، ج ١، ص ١٨٤.

له وحده تحيا بحياته، وتفنى بفناؤه. وهنا تتجلى لنا غيرته الشديدة على المرأة، تلك الغيرة التي ركبت فيه منذ صغره.

ويبدو أن هذا الارتباط الشديد بحبيبته هو الذي جعله كثير البكاء والشكوى في غزله، غير قادر على كبح جماح نفسه عند رؤيتها من جهة، ولا يستطيع أن يصبر ويتجلد عند غيابها، أو منع أهلها له من رؤيتها، من جهة أخرى، والبعد عن الحبيبة - في نظر الشاعر - أصعب شيء يعرض للعاشق المتيم وفي ذلك يقول: " . . . ثم بين منع من اللقاء، وتحضير على المحبوب من أن يراه محبه فهذا - ولو كان من تحبه معك في دار واحدة - فهو بين: لأنه بائن عنك. وإن هذا ليولد من الحزن والأسف غير قليل. ولقد جربناه فكان مرّاً وفي ذلك أقول:

أرى دارها في كل حين وساعة	ولكن من في الدار عني مغيب
وهل نفعي قرب الديار وأهلها	على وصلهم مني رقيب مرقب
فيالك جار الجنب، أسمع حسه	وأعلم أن الصين أدنى وأقرب
كصاد يرى ماء الطوي بعينه	وليس إليه من سبيل يسبب
كذلك من في اللحد عنك مغيب	وما دونه إلا الصفيح المنصب <sup>(١)</sup>

فالشاعر في هذه الأبيات - كما هو ظاهر - موزع بين الحب والشوق والحنين يتلطف إلى لقاء الحبيب لعله يخفف من صبوته، ويهدئ من علواء أشواقه، ولكن كيف يكون له ذلك؟ وهو يعلم مسبقاً أن تلك مهمة صعبة عليه، وأن الصين أدنى له منها وأقرب فلم يبق له إذن إلا القنوع بما يجد من آلات<sup>(٢)</sup>. محبوبته لتكون صلة روحية بينها وبينه، يقهر بها غربته النفسية، لأن في ذلك تجديداً للمنى وبعض الراحة اقتداءً بقصة سيدنا يوسف عليه السلام:

لما منع القرب من سيدي	ولج في هجري ولم ينصرف
صرت بأبصاري أثوابه	أو بعض ما قد مسّه أكتفي
كذاك يعقوب نبي الهدى	اذ شقه الحزن على يوسف

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢١٦.

(٢) الآلات: يقصد بها الشاعر أدوات محبوبته.

ومثل هذا الإحساس نراه عند ابن حزم في قوله الذي يخاطب به ابن عمّه  
أبا المغيرة عبد الوهاب أحمد بن عبد الرحمن بن حزم:

قفا فاسألا الأطلال أين قطينها أمّرت عليها باليلى المَلَوَانِ  
على دارساتٍ مقفراتٍ عواطلٍ كأن المغاني في الخفاء معاني<sup>(١)</sup>

والصلة بين هذين البيتين والغزل القديم واضحة، فالشاعر يمرّ أو يزعم أنّه  
قد مرّ بديار الحبيبة، فيستوقف صاحبيه ويخاطبهما على عادة القدامى، ويطلب  
منهما أن يسألا الأطلال عن قطينها الذين ضعنوا عنها. وعلى الرغم من أن  
الرياح والأيام قد أبلت معالم هذه الأطلال إلا أنها بقيت توحى له في خفاء بمعان  
وذكريات من الماضي السعيد.

ولا يخفى ما في تشبيه الشاعر "للمغاني بالمعاني" من جنوح إلى التجريد  
والغموض مما أدى إلى عدم وضوح الصورة التي أراد أن يرسمها لأن "المعاني  
لا تصلح مشبهاً به يوقع في النفس معنى أو يوقفها على وصف محدد، فهي بحار  
متلاطمة تتفاوت في الوضوح والخفاء، ولئن اعتبر البلاغيون هذا التشبيه تشبيه  
محسوس بمعقول فإن نقاد الشعر لا يرون فيه إلا تشبيه واضح بغامض، أو تشبيه  
محدّد بآخر بلا حدود، فابن حزم لم يترك في نفوسنا بهذا التشبيه أثراً واضحاً يثير  
في نفوسنا عاطفة معينة، وكلّ هذا ولوع منه بالتجديد، وشغف بالمعاني العقلية"<sup>(٢)</sup>.  
وهنا تتجلى أصالة ابن حزم الفنيّة وذلك إذا أخذنا برأي الدكتور مصطفى

سوييف القائل: "قاماً الاصاله فتتجلى في ميل بعض الأشخاص إلى التجريد ويتجلى  
ذلك في استخدام بعض الشعراء لتشبيهات جديدة ونفورهم من تشبيهات شائعة"<sup>(٣)</sup>.  
ومما سبق نستخلص أن وصف الأطلال عند شاعرنا لا يختلف كثيراً عن  
وصفها عند غيره من الشعراء القدامى، فهي ديار موحشة وأوسام بالية، إلا أنه لا  
يحرص على تحديد الموضع وتسميته، وتشبيهه بأشكال مختلفة كما فعل امرؤ  
القيس مثلاً عندما شبه الأطلال التي وقف عليها بالكتاب:

(١) الرسائل، ج ١، ص ٥٢٥.

(٢) دراسة الحب في الأدب العربي، مصطفى عبد الواحد، ج ٢/ص ٢٨٧.

(٣) العبقريّة في الفن، مصطفى سوييف، ص ٤١، دار القلم ١٩٦٦، (بدون ط).

يظهر أيضاً في هذه الأبيات التي قالها خلال مزار الطيف، إذ تبدو فيها ومضة من التجديد والبعد عن التقليد بالإضافة إلى ما تحمله من معاني العفة وسمو الأخلاق، وعظمة الاحترام الذي يكنه لحبيبه. فهذه المقطوعة - في نظرنا - هي عنوان لعفة ابن حزم في منامه إن لم نقل في حياته كلها.

ومزار الطيف عند صاحبنا هو ضرب من القنوع بالنسبة إلى المحب الذي حرم الوصل واللقاء، ولذته عنده عظيمة جداً حتى إنها تشبه لذة اليقظة وفي ذلك يقول: "ومن القنوع الرضا بمزار الطيف، وتسليم الخيال، وهذا إنما يحدث عن ذكر لا يفارق وعهد لا يحول، وفكر لا ينقضي، فإذا نامت العيون وهذأت الحركات سرى الطيف"<sup>(١)</sup> ومن شعره في ذلك قوله:

زارَ الخيالَ فتىً طالَتْ صَبَابَتُهُ      على احتفاظٍ من الحَرَّاسِ والحَفْظَةِ  
فَبِتُّ في ليلتي جِذْلانَ مُبْتَهَجاً      ولَذَّةَ الطيفِ تُنْسِي لَذَّةَ اليقْظَةِ<sup>(٢)</sup>

وكما تعجب الشعراء القدامى من زيارة طيف الحبيب لهم ليلاً، كذلك يتعجب بها تحت التراب مما جعله يسعد بحضورها ويستعيد أيام زمانه الناعمة معها. إلا أن شاعرنا لم يذكر لنا كعادة القدامى قدرة طيف حبيبته على احتمال مشاق الرحلة الطويلة حتى يصل إليه.

أتى طيفُ نَعْمٍ مضجعي بعد هدأةٍ      وللَّيلِ سلطانُ وظلُّ ممددٍ  
وعهدي بها تحتَ الترابِ مُقِيمَةً      وجاءت كما قد كنتُ من قبلُ أعهد  
فَعُدْنَا كما كنا وعادَ زمانُنَا      كما قد عهدنا قبلُ والعَوْدُ أحمدُ<sup>(٣)</sup>

ويحتل مزار الطيف في غزل ابن حزم العفيف مكانة بارزة، وحال المزور عنده في المنام ينقسم أقساماً أربعة:

أولها: "محب مهجور قد تطاول غمه، ثم رأى في هجعته أن حبيبه وصله فسرّ بذلك وابتهج، ثم استيقظ فأسف وتلهّف، حيث علم أن ما كان فيه أمانى النفس

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٣٣.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ٢٣٣.

(٣) الرسائل، ج ١، ص ٢٣٣.



لا تعجبوا إذ سرى والليل معتكراً فنوره مذهب في الأرض للظلم<sup>(١)</sup>

وخلاصة القول إن معاشتنا لغزل ابن حزم العفيف تجعلنا نستخلص بعض الانطباعات: أهمها أن شعره في هذا الفن لم يكن في معظمه تعبيراً حقيقياً عن أحاسيه ومشاعره وما يختلج في نفسه من ولع وحب، وهذا ما جعلنا لا نحس في كثير من الأحيان بتلك الحرارة التي اعتدناها مثلاً في شعر مجنون ليلى، وجميل بثينة، وغيرهما من شعراء المدرسة العذرية. في حين نتبين فيه براعة في النظم وجنوحاً للجدل والإقناع.

#### ب - النزعة الحسية في غزل ابن حزم:

يبدو أن ابن حزم على الرغم من قوله إن الحب "اتصال بن أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع"<sup>(٢)</sup> إلا أنه لم يهمل دور الأعضاء الحساسة في تدعيم هذا الحب، وعن ذلك يقول: "وإني لأعرف فتى من أهل الجد والحب والأدب، كان يبتاع الجارية وهي سالمة الصدر من حبه، وأكثر من ذلك كارهة له لقلة شمائل كانت فيه، وقطوب دائم كان لا يفارقه ولا سيما مع النساء فكان لا يلبث إلا يسيراً ريثما يصل إليها بالجماع ويعود ذلك الكره حبا مفرطاً وكلفاً زائداً، واستهتاراً مكشوفاً، ويتحول الضجر لصحبته ضجراً لفراقه... فمثل هذا وشبهه إذا وافق أخلاق النفس ولّد المحبة إذ الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها"<sup>(٣)</sup>.

وهكذا نرى أن ابن حزم لم يقف في تحليله لمفهوم الحب عند حدود هذه النظرة المثالية، وإنما جعل للأعضاء الحساسة نصيباً في ذلك. كما أنه لم يكن يفرق في فلسفة الحب بقدر ما كان يعتمد على الواقع والتجربة، لأنه هو نفسه كان قد اكتوى بنار الهوى وعانى تباريح الشوق والحرمان.

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٣٥.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ٩٣.

(٣) الرسائل، ج ١، ص ١٢٨.

كَأَنَّهَا حِينَ تَخْطُو فِي تَأْوُذِهَا      قَضِيبُ نَرْجَسَةٍ فِي الرُّوضِ مَيَّاسُ<sup>(١)</sup>  
كَأَنَّمَا خَطُوهَا فِي قَلْبِ عَاشِقِهَا      فَفِيهِ مِنْ وَقْعِهَا خَطَرٌ وَوَسْوَاسُ  
كَأَنَّمَا مَشْيُهَا مَشْيُ الْحَمَامَةِ لَا      كَدٌّ يُعَابُ وَلَا بَطْءٌ بِهِ بَاسُ<sup>(٢)</sup>

فالشاعر يجمع في هذه الأبيات بين محبوبته ومظاهر من الطبيعة، ويحاول أن يرى الطبيعة مجسدة فيها، فيستعين بتشبيهات ترددت كثيراً على ألسنة الشعراء، فهي حين تتمايل في مشيها كأنها قضيب نرجسة في الروض مَيَّاس، ومشيتها مشي الحمام... الخ، ويبدو أن هذه الأبيات لا تعبر عن أي بعد نفسي عميق أو موقف عاطفي صادق لابن حزم، سوى أنه ينقل إلينا إعجابه بهذه الجارية وكيف كانت على قدر كبير من الجمال الشكلي مما يجعلنا لا نلمس فيها شيئاً من الصدق العاطفي، مع أنه حاول أن ينقل إلينا أثر صورة هذه الجارية في نفسه.

وابن حزم في أبياته لم يتعدّ الوصف الحسي، إذا استثنينا ما أثارتته هذه الفاتنة في قلب عاشقها. ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن شاعرية ابن حزم تحكمها وتحدّ منها ذهنيته العميقة، وعقله الغزير، رغم أن التشبيهات الثلاثة التي بنى عليها أبياته جاءت جميلة، مع الإشارة إلى أن البيت الأخير منسوج على منوال الشاعر الأعشى في معلقته التي تغزل فيها بمحبوبته، إذ شبّه مشيتها بمشي السحابة هناك، وجاء ابن حزم ليشبّه مشي حبيبته بمشي الحمامة هنا، يقول الأعشى:

كَأَن مَشْيَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا      مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلٌ

ويلاحظ بوضوح اتكاء ابن حزم أحياناً - كما هو هنا - على ما سلف من أشعار العرب وتشبّعه بالشعر الأصيل.

ويكاد شاعرنا أن يصل أحياناً إلى درجة المبالغة المسرفة في وصف جمال حبيبته (نعم) إذ يجعلها كالشمس، وسائر النساء نجوم. ولكن هذا لا ينفى أن ابن حزم لم يحمل هذا النوع من شعره دقات القلب الحساسة، وما كان يجيش في

(١) مَيَّاس: الميس، التبختّر، وعضى مَيَّاس: مائل - لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ج ٦/ مادة

ميس.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ١٨٣.

صدره من لواجع الحب وينقلها إلى حيز الوجود غناءً دافئاً حالماً كما جاء في قوله:

مهذبةً بيضاء كالشمس، إن بدت      وسائر ربات الحجال نجوم  
أطار هواها القلب عن مستقره      فبعد وقوع ظل وهو يحوم<sup>(١)</sup>

وعلى هذا النهج أيضاً يسير ابن حزم في رسم صورة حبيبته في كثير من المقطوعات الشعرية التي خصّها لهذا الموضوع ومن ذلك قوله:

خريدة صاغها الرحمن من نور      جئت ملاحظتها عن كل تقدير  
لو جاءني عملي في حسن صورتها      يوم الحساب ويوم النفخ في الصور  
لكنت أحظى عباد الله كلهم      بالجنّتين وقرب الخرد الحور<sup>(٢)</sup>

فالشاعر في هذه الأبيات، يصف حبيبته بأوصاف غير مبتذلة ولا تقليدية إذ يشبّنها بالؤلؤة، ويسبغ عليها جواً دينياً مثالياً، وهو بذلك يضعها في كفة وسائر النساء في كفة مقابلها، لأنها ليست من طينة بشرية، وإنما أنشأها الله من نور، حتى إنه ليعجز عن وصفها لفرط جمالها، وهنا تظهر ثقافة ابن حزم الدينية الواسعة التي كان يحظى بها، وقد أقحمها إقحاماً قصد المبالغة.

ولم يكتف صاحبنا بنقل الصور الحسية، وتشبيه مفاتن حبيبته بتشبيهات مستمدة من الطبيعة والدين فحسب، بل يذهب في موضع آخر إلى أبعد من ذلك، فيفضل وصل الحبيب الجميل على ما تبقى من متاع الدنيا، لأن في ذلك عنده لذة لا تدانيها لذة أخرى مهما كانت قيمتها وفي ذلك يقول:

وسائل لي عما لي من العمر      وقد رأى الشيب في الفودين<sup>(٣)</sup> والعذر  
أجبتُه ساعةً لأشياء أحسبه      عمراً سواها بحكم العقل والنظر  
فقال لي: كيف بيّنة لي فلقد      أخبرتني أشنع الأبياء والخبر  
فقلت إن التي قلبي بها علق      قبلتها قبلة يوماً على خطر

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٢٤.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ٢٧٤.

(٣) الفودان: واحدها فود، وهو معظم شعر اللمة مما يلي الأذن، لسان العرب، ج ٣/ مادة فود.

فما أعدُّ ولو طالَتْ سنِّي سوى تلك السُّويعة بالتحقيق من عُمرِي<sup>(١)</sup>  
ويبدو أن زمن الحبِّ هو مقياس قيمة العمر عند الشاعر، من خلال هذه  
القصيدة، ومن هنا كان ذلك الشخص الذي يسأله عن عمره غير مدرك تلك الساعة  
التي قَبِلَ فيها ابن حزم حبيبته قبله يوماً على خطر. فحرارة قبلية نظيفة هي عمر  
صاحبنا كلّه. وفي اعتقادنا أن تقبيل الشاعر لحبيبته لم يكن سلوكاً شهوانياً أو  
ضرباً من الحسيّة المفرطة، بل هو نموذج طاهر قد جوّزه - ابن سينا إذا كان  
الهدف منه التقارب والاتحاد، والترفع عن كل ما هو شهواني والتماس التطرف  
والمروءة<sup>(٢)</sup>.

ويستدل ابن حزم في أبيات أخرى باللثم على معنى من معاني الوصل فيقول:

جرى الحبُّ مني مجرى النَّفَسِ      وأعطيتُ عيني عِنانَ الفَرَسِ  
ولي سيّدٌ لم يزلْ نافرأ      وربما جادَ لي في الخُلْسِ  
فقبّلتُه طالباً راحةً      فراد أليلاً بقلبي اليَبَسِ  
وكان فؤادي كنبْتِ هشيمٍ      يبيس رمى فيه رامٍ قَبَسِ<sup>(٣)</sup>

والغريب في الأمر في هذه الأبيات أنها لا تستند إلى تلك القاعدة المألوفة  
عند المحبين والعشاق، وهي الشفاء بعد الوصل، والبراءة من المرض وتباريح  
الشوق. فابن حزم يخالف هذه القاعدة ذاهباً إلى أن قيمة الوصل تتمثل فيما يهيجُه  
من لوعة معمورة بعد منعة، وما يزيكه في القلب من حرقة بعد راحة فكأن الفؤاد  
نبت هشيم رمى فيه رام قبس.

ويختلف شعر صاحبنا في هذا المضمار باختلاف حاله، فالمعروف أن حال  
العاشقين الصادقين إذا أصيبوا بالبعد والحرمان: دموع وزفرات وألم وحسرة، إلا  
أن شاعرنا يشذّ عن هذا العرف في بعض الأحيان، ولا يكره الفراق حتى لو كان

(١) الرسائل، ج ١، ص ١٨١.

(٢) ينظر رسائل ابن سينا في أسرار الحكمة المشرقية (إسالة في العشق) تصحيح ميكائيل بن يحيى المهدي -

طبعة ليدن - سنة ١٨٩٣م - ج ٢/ ص ١٧.

(٣) الرسائل، ج ١، ص ١٨٢.

## الفصل الثاني

### الفخر:

إن الدارس لحياة ابن حزم يرى ما ألم به من محن سياسية ومذهبية، وما صبه عليه مخاصموه وأعداؤه من عذاب أليم. وقد لا نبالغ إذا قلنا أننا لا نكاد نعرف عالماً في مثل بيئة صاحبنا، وأجوائه تجمعت عليه مثل هذه الضروب من البطش وألوان الشقاء وكثرة الحساد والأعداء. ولكن ابن حزم الذي كان يحس دائماً بالعظمة والجرأة والمقدرة، لم يكن ليتحمل مثل هذه الظلم والاحتقار، ودافع عن نفسه بقلمه ولسانه، وافتخر بعلمه وشمائله.

وكان من نتائج ذلك، أن جاء فخره ممزوجاً بالألم والاعتداد بالنفس، مقروناً بالشكوى والتأسف، مصوراً مأساته واعتزازه بنفسه في أبرز ملامحهما وأنسب صفاتهما.

ولعل أول مثل نقدمه في هذا المجال: تحامل ابن عمه المغيرة ابن حزم عليه، ويبدو أنه كان بينهما عداوة وخصومة؛ وهذا ما نستشفه من رسالة خاطب بها شاعرنا في أسلوب تهكمي، ولتبيان ذلك نقتطف منها هذه الفقرة حيث يقول فيها: "وقفت - كلاك الله - وأنت عين التمام، وعلم الاعلام، على كتاب عنوانه باسمك أسمال، كأنه طلل بال، فكلما هزرتة هوم<sup>(١)</sup> أو سألته استعجم معنى كصدي الإنسان، ولفظ كمنهجات الأكفان<sup>(٢)</sup> وأغراض لا يدب فيها سهم مقرطس. وإظلام لا وضح فيه لصبح متنفّس، ورطانة تمجّها الأسماع، وتجتويها<sup>(٣)</sup> الطباع... " (٤).

(١) هوم: الرجل إذا هز راسه من النعاس. لسان العرب ج ١٢/مادة (هوم).

(٢) المنهجات الاكفان المنهج: الثوب الذي اسرع فيه البلى، وقد نهج الثوب والجسم اذا بلى، المصدر نفسه ج ٢/مادة (نهج).

(٣) تجتويها الطباع : تكرهها الطباع، المصدر نفسه. ج ١٤/مادة (جوا).

(٤) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، ابن بسام الأندلسي ق ١/م ١ ص ١٦٢، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٩.

وقد رد عليه شاعرنا بجواب قصير نلمس فيه شخصية العالم المتفهم، العامل بما أملاه عليه الدين الحنيف ، و اخلاقه النبيلة فقال: " سمعت وأطعت لقوله تعالى: " وأعرض عن الجاهلين" (١). وسلمت وانقدت لحديثه عليه السلام: " صل من قطعك وأعف عمن ظلمك" (٢) ورضيت بقول الحكماء " كفاك انتصاراً ممن تعرض لاذاك اعراضك عنه، وأقول:

تَبَغَّ سِوَايَ أَمْرًا يَبْتَغِي      سَبَابَكَ، إِنَّ هَوَاكَ السَّبَابُ  
فَإِنِّي أَبَيْتُ طِلَابَ السَّفَاهِ      وَصُنْتُ مَحَلِّي عَمَّا يُعَابُ  
وَقُلْ مَا بَدَا لَكَ مِنْ بَعْدِ ذَا      وَأَكْثَرَ فَإِنَّ سَكُوتِي جَوَابُ  
وَأَقُول:

كَفَانِي ذِكْرُ النَّاسِ لِي وَمَآثِرِي      وَمَالِكَ فِيهِمْ يَا ابْنَ عَمِّي ذَاكِرُ  
عَدُوِّي وَأَشْيَاعِي كَثِيرٌ كَذَاكَ مَنْ      غَدَا وَهُوَ نَفَاعُ الْمَسَاعِي وَضَائِرُ  
وَمَالِكَ فِيهِمْ مِنْ عَدُوٍّ فَيَتَّقَى      وَمَالِكَ فِيهِمْ مِنْ صَدِيقٍ يُكَاثِرُ  
وَقَوْلِي مَسْمُوعٌ لَهُ وَمُصَدِّقُ      وَقَوْلِكَ مُنْبَتٌّ مَعَ الرِّيحِ طَائِرُ  
وَإِنِّي وَإِنْ آذَيْتَنِي وَعَقَقْتَنِي      لِمُحْتَمِلٍ مَا جَاءَنِي مِنْكَ صَابِرُ (٣)

هذه الابيات كما يظهر زفرة حارة ينفثها الشاعر المعنى من جرأء سوء معاملة ابن عمه له، وقد ضمنها اعتداده بنفسه، وفخره بفضائله ومحاسنه معتمداً في ذلك على اسلوب المفارقة الفنية. فهو وان كان له اعداء الا انه معروف بين الناس وله اصدقاء ومآثر جمة وكلمة مسموعة وهذا في نظره امر طبيعي في حياة البشر ومثله في ذلك مثل من غدا وهو نفاع المساعي وضائر في حين ينفي ان يكون لابن عمه شيئاً مما ذكر، ومع ذلك فهو لا يرد على المعاملة بالمثل ولا يضره في شيء، مؤكداً له انه سيبقى على اخلاقه التي جبل عليها ليتحمل اذاه

(١) سورة الأعراف: ١٩٩.

(٢) مسند الامام احمد بن حنبل، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ج ٤، ص ١٥٨.

(٣) الذخيرة، ابن بسام ق ١/١ ص ١٦٤-١٦٥.

وعقوقه بصبر وتجلد كيف لا؟ وهو البادئ دائماً بالمحبة والخير والوفاء لكل من بمت اليه ولو ببقية واحدة<sup>(١)</sup>.

وأول ما يبدو لنا في هذا النموذج من فخر ابن حزم أن المعاني التي كانت مدار الشاعر بوجه عام: المكانة العظيمة والتسامح والصبر والتحمل، وأن العنصر الذاتي في الأبيات هو البارز، لذلك غلب عليها استخدام ضمير المتكلم كقوله: كفاني، عدوي، مآثري، إشباعي، وأني... الخ

وقد أسهم أسلوب المقابلة الذي اعتمده الشاعر أيضا في إظهار هذه الذاتية وإبراز مشاعر الفخر والثقة في النفس. وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن فخر الشاعر كان رد فعل لاحتقار الناس له وإعادة اعتباره لنفسه المتألمة، وليس فخرا من أجل الفخر، لذلك جاءت قصائده الذاتية التي ينافح بها عن موقفه، ويذكر فيها تكالب الناس على إيذائه والخط من قدره، من أحفل شعره بالعناصر الشعرية الصحيحة، فكانت قائمة على القوة والجزالة والحدة، وليس معرضاً للتفنن في الرأي، وإبراز المعاني من حجبها.

ومن أمثلة ذلك قصيدته التي يفخر بها بالمذهب الظاهري، مبيناً حبه له،

وإصراره على التمسك بالقرآن الكريم والسنن فيقول:

أَقُولُ الْهُمُّ وَأَقَاوِيلُ الْوَرَى مَحَنُ	قَالُوا تَحَفَّظْ إِنَّ النَّاسَ قَدْ كَثُرَتْ
أَقُولُ بِالرَّأْيِ إِذْ فِي رَأْيِهِمْ فِتْنُ	فَقُلْتُ: هَلْ عِيَهُمْ لِي غَيْرَ أَنِّي لَا
سِوَاهُ أَنَحُو وَلَا فِي نَصْرِهِ أَهْنُ	وَأَنِّي مُوَلِّعٌ بِالنَّصِّ لَسْتُ إِلَى
وَيَا سُرُورِي بِهِ لَوْ أَنَّهُمْ فَطِنُوا	يَا بَرْدَ ذَا الْقَوْلِ فِي قَلْبِي وَفِي كَبْدي
مَنْ مَاتَ مِنْ قَوْلِهِ عِنْدِي لَهُ كَفَنُ <sup>(٢)</sup>	دَعَهُمْ يَعْضُوا عَلَى صَمِّ الْحَصَى كَمْدًا <sup>(٣)</sup>

(١) الرسائل، ج ١، ص ١٢٥.

(٢) الكمد: هم وحزن لا يستطيع امضاؤه - لسان العرب ج ٣/مادة كمد

(٣) سير اعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي ج ١٨/ص ٢١٢، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار المعارف،

القاهرة ١٩٧٥.

ومما لا شك فيه ان عامل الدين قد ساهم مساهمة فعالة في فخر صاحبنا،  
فاندفع كالسهم المنطلق والفارس البطل يجابه الاعداء ويجادل الفقهاء ويتحدى  
العظماء ويفتخر بعلمه وقدراته الابداعية.

واعتماد ابن حزم بنفسه في كثير من الاحيان لا يعرف التواضع، ولا يكتفي  
بالاوصاف البسيطة، وهذا ما نلمسه في قصيدته البائية التي يخاطب فيها قاضي  
الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشير<sup>(١)</sup> ويفخر فيها بعلمه ومكانته حيث يقول:

أَنَا الشَّمْسُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مُنِيرَةٌ      وَلَكِنْ عَيْبِي أَنْ مَطْلَعِي الْغَرْبُ  
وَلَوْ أَنَّنِي مِنْ جَانِبِ الشَّرْقِ طَالَعٌ      لَجَدَّ عَلَيَّ مَا ضَاعَ مِنْ ذِكْرِي النَّهْبُ  
وَلِي نَحْوُ أَكْنَافِ الْعِرَاقِ صَبَابَةٌ      وَلَا غَرَوْ أَنْ يَسْتَوْحِشَ الْكَافُ الصَّبُّ  
فَإِنْ نَزَلَ الرَّحْمَنُ رَحَلِي فِيهِمْ      فَحِينَئِذٍ يَبْدُو التَّأْسُفُ وَالْكَرْبُ  
فَكَمْ قَاتِلٌ أَغْفَلْتُهُ وَهُوَ حَاضِرٌ      فَأَطْلُبُ مَا عَنْهُ يَجِيءُ بِهِ الْكُتُبُ  
هُنَالِكَ تَدْرِي أَنَّ لِلْبُعْدِ غُصَّةً      وَأَنَّ كِسَادَ الْعِلْمِ آفَتُهُ الْقُرْبُ  
فَوَاعَجِبًا مَنْ غَابَ عَنْهُمْ تَشَوَّقُوا      لَهُ وَدُنُو الْمَرءِ مِنْ دَارِهِمْ ذَنْبُ  
وَأَنَّ مَكَانًا ضَاقَ عَنِّي لَضِيقٌ      عَلَى أَنَّهُ فِيحٌ مَذَاهِبُهُ سَهْبُ  
وَأَنَّ رَجَالًا ضَيَّعُونِي لَضِيْعٌ      وَإِنْ زَمَانًا لَمْ أَتْلُ خِصْبَهُ جَدْبُ<sup>(٢)</sup>

لا يخفى ما في هذه القصيدة من فخر وغلو وإفراط، فقد ذهب الشاعر فيها  
إلى أبعد الحدود في مدح نفسه والإشادة بعلمه. ويبدو أنه تعتمد المبالغة في هذه  
الآبيات؛ وذلك لإظهار قيمته العلمية، وغربته النفسية من جهة، وللرد على الخصم  
من الفقهاء الذين طالما هاجموه وانتقدوه وأعرضوا عن نتاجه الفكري باعتباره  
نتاجا محليا من جهة أخرى.

(١) هو عبد الرحمن بن احمد بن سعيد بن بشير بن غريبة قاضي الجماعة بقرطبة يكنى بأبي المطرق ويعرف  
بابن الحصار. ولد سنة ٣٦٤ وتولى القضاء لمدة اثنتي عشرة سنة وعشرة اشهر واربعة ايام وتوفي سنة

٤٢٢هـ. ينظر الصلة لابن بشير ج ٢/ص ٣٢٦ ترجمة رقم ٦٩٨.

(٢) معجم الادباء، ياقوت الحموي ج ١٢ / ص ٢٥٤ - ٢٥٥، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٧.



ولعل هذا ما جعل شخصية الشاعر تبرز من خلال الأبيات بصورة المدافع عن "هذا الانتماء، لا بالمعنى الإقليمي، ولكن بمعنى قدرة ذلك القطر على الإبداع والانجاب، ولكن عيبه أنه محلي وللغريب مزية كما يريد أن يقول" (١).

ولا تخلو هذه الصورة في حد ذاتها من تمجيد "للأنا" ويظهر ذلك بوضوح عندما يتخيل أنه يغادر الأندلس، وأن مغادرته سوف تترك فراغاً في الأوساط الثقافية هناك، مما يجعل الذين يطاردونه اليوم ويضيقون به ذراعاً، يتطلعون إليه ويتأسفون لبعده عنهم، وكأنه كان يجد في هذا التخيل متاعاً لنفسيته ومواساة لقلبه المولع .

ومن خلال الأبيات نستشف إرهاب إحساس الشاعر، وكيف لا؟ بالنسبة لعالم وأديب مبدع ينكره قومه لا شيء إلا "بلديته" وكأنني به يقول: لا كرامة لنبي في وطنه. إنها فجيرة للإنسان أن يرى الظلم يحيق به وهو يدرك أن لا ذنب له إلا ذاته رمز الحق والحقيقة، ولا يمكن للحق أن يرضي الظلم وأصحابه، فالضد يظهر حسنه الضد.

لكن ابن حزم وهو الرجل المتواضع سرعان ما يستدرك مبالغته، ويحس بما في فخره من مجاوزة الحد، فيعود ويعتذر في نفس القصيدة عما قاله:

وَلَكِنْ لِي فِي يُوسُفَ خَيْرُ أُسْوَةٍ      وَلَيْسَ عَلَيَّ مِنَ النَّبِيِّ اتِّسَاءُ ذَنْبٍ  
يَقُولُ مَقَالَ الْحَقِّ وَالصِّدْقِ إِنِّي      حَفِيزٌ عَلَيْهِمَ مَا عَلَى صَادِقٍ عَتَبُ (٢)

ويبدو أن ابن حزم كان شديد الارتباط بالأندلس ، ولم تكن له الجرأة الكافية على مغادرته والدليل على ذلك بقاؤه فيه على الرغم من الاضطهاد الذي عاناه، في حين كان بإمكانه الرحيل إلى المشرق خصوصاً إذا علمنا أنه لم يكن هناك ما يحول بينه وبين الشعر، وكانا بالشاعر أراد أن يفتخر بأندلسيته من خلال ذلك ولو بطريق غير مباشر، ويقول: سر بقائي هنا حبي للأندلس وارتباطي بأرضه الطيبة التي رعت الإسلام قروناً من الزمن.

(١) الادب العربي في الأندلس والمغرب - د. محمد رضوان الداوي، مطبعة جامعة دمشق (ط١) ١٩٨٤، ص

(٢) جذوه المقتبس ، للحميدي ص ٢٩٢ ومعجم الادباء لياقوت الحموي ج ١٢/ ص ٢٥٦.

الخلقية التي كان يتحلى بها، واعتداده بنفسه ومكانته البارزة في العلم بشيء من  
المبالغة.

## الفصل الثالث

### شعر الحكمة والزهد

إن حب ابن حزم للجمال وسحر الدنيا لم ينسه واجبه كفقيه صاحب مذهب. وأن يرفع صوته بالزجر عن المحرمات والتحذير من المغريات، والحث على صالح الأعمال وحسن الأخلاق، تفاديا لعذاب النار ورغبة في نعيم الخلد. ولنشأة الشاعر وثقافته الدينيتين اكبر الأثر في زهد الدنيا، وتعصبه للإسلام والاستمساك بأحكامه، والنظر إلى الدنيا نظرة الخائف من عقاب الله وعذاب الآخرة.

ومن الطبيعي لدى عالم فقيه أن نجد قصائد خاصة بحمد الله تعالى، وتمجيده وتعظيمه، وأن تمتزج الحكمة والزهد في قصائد كثيرة من شعره. والأبيات التالية من قصيدة طويلة تحتوي على ضروب الحكم وفنون الآداب الطبيعية. قال:

وسرأءُ أحشائي لمن أنا مؤثرٌ      وسرأءُ أنبائي لمن أتحبُّ  
فقد يشربُ الصابُ الكريةَ لعلَّه      ويتركُ صفوُ الشَّهْدِ وهو مُحَبَّبُ  
وأعذلُ في إجهادِ نفسي في الذي      أريدُ وأنِّي فيه أشقى وأتعَبُ

ومنها أيضا

وأصرفُ نفسي عن وجوه طبايعها      إذا في سواها صَحَّ ما أنا أرغبُ  
كما نسَخَ اللهَ الشرائعَ قبلنا      بما هو أدنى للصَّلاحِ وأقربُ  
كما صار لونُ الماءِ لونَ إنائه      وفي الأصلِ لونُ الماءِ أبيضُ مُعْجَبُ

ومنها أيضا

وما أنا ممن تطَّيَّبه بِشاشَةٍ      ولا يفتضي ما في ضميري التَّجَنُّبُ  
أزيدُ نِفاراً عند ذلك باطناً      وفي ظاهري أهلٌ وسهلٌ ومرحَبُ  
فإني رأيتُ الحربَ يعلو اشتعالها      ومبدؤها في أول الأمر ملعبُ  
وللحيَّةِ الرقشاءُ وشيٌّ ولوَّنها      عجيبٌ وتحت الوُشيِّ سُمٌّ مُرْكَبُ  
فقد يضعُ الإنسانُ في الترابِ وجهه      ليأتي غداً وهو المَصُونُ المقَرَّبُ

وَرُودُكَ نَهْلَ الْمَاءِ مِنْ بَعْدِ ظَمَأٍ أَلْذُ مِنَ الْعَسَلِ الْمَكِينِ وَأَعَذِبُ<sup>(١)</sup>

هذه الأبيات تضم ضروباً من الحكمة، إنها نتاج خبرة فقيه متمكن، ومؤرخ ثقة وأديب كبير ورجل سياسة كوته الحياة بنيرانها كما تلذذ بنعمائها حيناً، وانتهى في نهاية الأمر طريد السياسة، يرقب الأحداث والحادثات عن بعد، دون أن يكون فاعلاً فيها، كما كان حاله من قبل، وهو في مقطوعته يوضح لنا ما أعطته له الحياة، فقد يضطر الإنسان إلى ورود ما لا يورد، وركوب ما لا يركب، وهو الخبير بدخائل الحياة، فهو ليس ممن تخدعهم البسمة، بل يأخذ الحذر مترقياً ما وراء هذه البسمة وما تخفيه، كيف لا؟ وهو الذي علمته التجارب أن الشر يزداد ويتضاعف، كما هي حال الحرب حيث قد تكون بدايتها حادثة صغيرة، وهو هنا أشبه بشاعر العرب وحكيمها زهير بن أبي سلمى حيث يتحدث عن حادثات الزمان، فيبدأ ذلك بقوله:

سَمِئَتْ تَكَالِيفُ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَالِكَ يَسْأَمُ  
رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشَوَاءٍ مَنْ تُصِيبُ تَمَتُّهُ وَمَنْ يَخْطِئُ يَعْمُرُ فِيهِمْ

ويستمر ابن حزم في إطلاق حكمه بقوله: هذه هي الحياة جد وهزل، عز وسقوط، فمن تراه اليوم عزيزاً، قد نراه في اليوم التالي في خضم السقوط، والعكس بالعكس، وهو ينتهي إلى إقرار ما يراه خلاصة حكمة هنا: فبلوغ الإنسان إلى النجاح وإلى ما يحتاج إليه ويتعطش للوصول إليه أروع وأعظم على النفس البشرية من النجاحات الدائمة المتتالية، وإذا كان فاقده الشيء لا يعطيه كما يقال، فإن حصول الإنسان على ما يفتقده، أمر يعتبر بحد ذاته غاية المنى.

وتتجلى في أبياته التالية روح التفاؤل والأمل، وروح التحدي في وجه صعاب الحياة، يقول:

وَلَا تَيَأْسَنْ مِمَّا يُنَالُ بِحِيلَةٍ      وَإِنْ بَعُدَتْ فَالْأَمْرُ يَنَالُ وَيَصْعَبُ  
وَلَا تَأْمَنْ الْإِظْلَامَ فَالْفَجْرُ طَالِعٌ      وَلَا تَلْتَبَسْ بِالضَّوْءِ فَالشَّمْسُ تَغْرُبُ  
وَكَثُرَ وَلَا تَفْشَلْ وَقَلَّ كَثِيرٌ مَا      فَعَلْتَ فَمَاءُ الْمُرْنِ جَمٌّ وَيَنْضَبُ<sup>(٢)</sup>

(١) الرسائل، ج ١، ص ١٩٢-١٩٣.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ١٩٣.

ويدعو إلى الواقعية، لكنها واقعية الحقيقة لا واقعية الأمر الواقع المفروض  
استسلاما على الإنسان. فالإنسان يفضل أخاه الإنسان، ولا يتساوى الناس في  
الطيب:

وفي كل مخلوق تراه تفاضل  
ولا تقرّب من ملح المياه فإنها  
فرد طيباً إن لم يتخ لك أطيّب  
شجى والصدا بالحرّ أولى وأوجب<sup>(١)</sup>

أجل لا بد أن يعيش الإنسان بعض من تجمعهم البيئة المحيطة، وقد ترى  
إنساناً جيداً هنا وآخر أقل جودة عليك أن تختار وفقاً لذلك.

فقد لا تمنح البيئة الاجتماعية الإنسان الذي يمثل النموذج ، فالأمر في غاية  
النسبية، غير أنه على الإنسان أن يبتعد عن سيئات الحياة، التي يشبّهها بالمياه  
المالحة، والإنسان صاحب الموقف الشجاع عليه ان يبتعد، ولا يرتد هذه السوآت.  
ولم يقتصر شاعرنا على الحكمة، إذ إن شكوى الدهر والزهد بالدنيا لم  
يخرجا عن إطار إبداعه الشعري وزهد ابن حزم "صحيح وسليم، نستطيع ان  
نعتبره تحقيقاً دقيقاً للسنة الإسلامية، ولا يضطلع به بمثل هذا الوضوح، الا رجل  
كابن حزم في تحريره ودقته وسعة اطلاعه وتثريه لروح الدين الاسلامي؛ فابن  
حزم مؤمن بقيمة الزهد وتوجهه نظرتة التشاؤمية أحيانا إلى تحبيب العزلة، ولكنه  
في مجموع نظرتة يفهم أن الزهد هو التغلب على النفعية جهد الطاقة، وأنه التربية  
النفسية التي تضحي بالعجب وتقضي عليه، ولذلك وقف كثيراً من جهده على  
توضيح الطرق التي يحارب بها العجب، ومضى يدرس الأفراد حتى يقف على  
دوافع هذه الرذيلة في اعماق نفوسهم ليستطيع القضاء على تلك الدوافع في  
منابتها"<sup>(٢)</sup>.

ولم يكتف ابن حزم بممارسة الزهد في حياته فحسب، وإنما ألّف فيه كتاباً  
كرسالته المسماة " في معنى الفقه والزهد"، إلا أنها ضاعت ولم تصل إلينا، إذ لو

(١) الرسائل، ج ١، ص ١٩٣.

(٢) رسائل ابن حزم الأندلسي ، ج ١ ص ٣٢٨، تحقيق احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،

بيروت (ط) ١٩٨٠.

وصلت إلينا لاستطعنا أن نطلع على كثير من آرائه الزهدية، ومنتبين مذهبه فيه  
والمواضع التي تناولها بالدراسة والمعالجة.

ولما كتب ابن حزم الرسائل في الزهد، نظم فيه أشعاراً عبر فيها عن إثاره  
الدار الباقية على الفانية، وتوجه فيها إلى الناس بالوعظ والحكمة، والتحذير من  
الانغماس في لذات الدنيا خوف الانزلاق في مهالكها.

وجلّ ما وصل إلينا من شعره في الزهد، موجود في كتابه طوق الحمامة،  
وفي هذا ما يدل على أن ابن حزم قد عرف الزهد في فترة مبكرة من حياته، لأن  
ما وصل إلينا من أشعار في كتاب الطوق إنما يمثل حياته ما قبل الثلاثين من  
عمره.

هذه هي الحياة، وهذا هو الدهر بتقلباته، لذة، عارضة تذهب أدراج الرياح  
في حينها، وحدث جلل يبقى ملاحقاً صاحبه، وحصيلة الحياة لمن لا يتعظ الهم  
والإثم والحسرة، ولكن لم الهم والإثم والحسرة؟ طالما أن اللذة فانية، وكأني بابن  
حزم الفقيه الورع يريد من خلال استنطاقه واقع الحياة أن يقول للإنسان: اعتبر،  
انظر، اتعظ. "فذكر لعل الذكرى تنفع المؤمنين" إنها الحياة، مرحلة عابرة بكل ما  
فيها، حنين على الماضي، واهتمام وتحقيق لما سيأتي، وغم وحزن يرافقه الخوف  
لتوقع ما يمكن أن يكون. وهكذا فالمحصلة النهائية لهذا الشكل قلق دائم يرافق  
الحياة البشرية، وكأن ابن حزم من خلال هذه الصور المتتالية يضعها أمام كل منا  
صور القلق، والهم، والإثم، واللذة العابرة وانتظار ما سيأتي يردد مع علي بن أبي  
طالب "اعمل ليومك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً".

وشعر ابن حزم في الزهد بصفة عامة يغلب عليه الوعظ والإرشاد، أو ما  
يمكننا القول إنه زهد تخويفي تعليمي<sup>(١)</sup> يدعو فيه الناس إلى التفكير في الموت،  
ويذكرهم بلقاء ربهم، ويستصغر الدنيا في أعينهم، ويقلل من شأنها سعياً منه  
لتطهير الناس من الشر، وتحريك حب الله في نفوسهم والعمل للأخرة، ومن ذلك  
قصيدته التي ينهى فيها الناس عن اتباع الهوى على سبيل الوعظ:

أقولُ لنفسي ما مُبينٌ كحالكِ وما الناسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكِ

(١) ينظر تقديم احسان عياد لرسالة طوق الحمامة (رسائل ابن حزم ج ١/ص ٥١)

والباحث في شعر ابن حزم الزهدي الهادف إلى الوعظ، يجد ان الشاعر يركز فيه كثيرا على تحقير الدار الفانية وتمجيد الدار الباقية، والتعجب من الذين تستعبدهم أمانيتهم وأهواؤهم وتشغلهم عن التزود للآخرة.

ولا يمر الشاعر دون تنبيه الناس من غفلتهم، محاولا أن ينثيهم عن ضلالهم، فيعاتبهم عتابا مخيفا على تناولهم في عصيان الخالق عز وجل وضعفهم أمام مغريات الحياة التي تنسيهم تقوى الله، وتقودهم إلى التهلكة كما لا ينسى أن يذكرهم بسوء العاقبة وما ينتظرهم من عقاب اليم:

أَعَارَتْكَ دُنْيَا مُسْتَرْدٌ مُعَارُهَا      غَضَارَةٌ عَيْشٍ سَوْفَ يَذْوِي اخْضَرَارُهَا  
وَهَلْ يَتَمَنَّى الْمُحَكَّمُ الرَّأْيَ عَيْشَةً      وَقَدْ حَانَ مِنْ دُهُمِ الْمَنَايَا مَزَارُهَا  
وَكَيْفَ تَلْذُّ الْعَيْنُ هَجْعَةً سَاعَةٍ      وَقَدْ طَالَ فِيمَا عَايَنْتَهُ اعْتِبَارُهَا  
وَكَيْفَ تَقَرُّ النَّفْسُ فِي دَارِ نُقْلَةٍ      قَدْ اسْتَيْقَنْتَ أَنْ لَيْسَ فِيهَا قَرَارُهَا  
وَأَنْتَى لَهَا فِي الْأَرْضِ خَاطِرُ فِكْرَةٍ      وَلَمْ تَدْرِ بَعْدَ الْمَوْتِ أَيْنَ مَحَارُهَا  
أَلَيْسَ لَهَا فِي السَّعْيِ لِلْفَوْزِ شَاغِلٌ      أَمَا فِي تَوْقِيهَا الْعَذَابُ ازْدَجَارُهَا<sup>(١)</sup>

ولا يخفي ما في هذه الأبيات من دعوة صريحة إلى الانصراف عن الدنيا وملذاتها، والتوجه إلى الحق سبحانه وتعالى بالتقوى، فانهما خير ألف مرة مما ينال من عرض الدنيا مهما كان عظيما؛ لأنه شيء فان، وغير مجد يوم الحساب، ولهذا فعلى الإنسان العاقل أن يسارع إلى رضوان ربه ويتجنب نواهيهِ حتى ينال منه الثواب الجزيل.

ونخلص إلى القول: إن ابن حزم بعبائه الشعري كان متعدد المناحي، والأغراض، وهو من خلال زهده وحكمه، أوضح لنا خلفيته الثقافية والروحية التي فاضت بها ومن خلالها قريحته الشعرية فجاء شعره أفكارا بثوب شعري، وتجاوبت مع شاعريته أغراضه الشعرية التي طرقها، وكان للحكمة والزهد من ذلك مجال الصدارة. إذ شكل ذلك متنفسا لابن حزم وتجاوب مع نفسه المؤمنة، ومع شخصيته التي خبرت الحياة علواً وخفضاً، فجاء من خلال ذلك كله نتاج البراعة.

(١) الرسائل، ج ١، ص ٣٠٢-٣٠٣.

## الفصل الرابع

### شعر الرثاء والتفجع

قال ابن بسام في صدر كلامه على شعر ابن حزم في الرثاء والتفجع : "لم يصل إلى أيدينا كثير من شعر ابن حزم في هذا الغرض إلا أن المقطوعات التي بين أيدينا تتم عن أصالة في احساساته وصدق تأثره" (١).

فقبل الحديث عن شعر ابن حزم في هذا الغرض، تقضي الضرورة أن نشير إلى أن ما وصل إلينا من شعره في هذا الفن قليل جداً، وقد جاء على شكل مقطوعات صغيرة لا تتعدى بضعة أبيات، بالإضافة إلى قصيدة متوسطة الطول في رثاء قرطبة.

ولسنا ندري ما هي الأسباب التي جعلت غرض ابن حزم هذا يتسم بالقلّة والندرة، وعهدنا به صاحب نفس طويل، وشعر كثير. فهل كان ذلك تهاونا في حق ذويه وأصدقائه واحبابه؟ أم أنه كان لا يجيد الرثاء؟ وأغلب الظن أن ابن حزم قد قال فيه شعرا كثيراً، إلا أن هذا الشعر لا يستبعد أنه ضاع ضمن ما ضاع من نتاجه العلمي من جراء تلك المحن القاسية التي تعاقبتها.

ومما يؤكد لنا أن الشاعر كان له نتاج جم في التأبين، ما نستنتجه من تقديمه لمقطوعة في رثاء حبيبته "نعم" والذي يقول فيه : "ومن مرائي فيها قصيدة طويلة" (٢). وتكراره لذلك عندما قدم لمقطوعة أخرى في رثاء صديقه أبي عبد الله التميمي (٣) فقال : "فمن مرائي له قصيدة منها" (٤).

فاستعمال ابن حزم لكلمة "مراي" مرتين متتاليتين، لدليل واضح على كثرتها وطول باعه في هذا الفن. ويبدو أن استخدامه هذه الكلمة وتكرارها، لم يكن اعتباطاً، بل كان عن وعي وإدراك تامين، خصوصاً إذا علمنا أن شاعرنا وهو

(١) الذخيرة لابن بسام ص ٢٨٣.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ٢٢٤.

(٣) هو محمد بن يحيى بن محمد بن الحسين الحماني أبو عبد الله المعروف بابن الطنبي، من أهل بيت أدب وشعر، ينظر بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى الضبي، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧، ص ١٤٥ ترجمة ٣١٦.

(٤) الرسائل، ج ١، ص ٢٦٤.



الرجل المنطقي، كان يتصف بالصراحة التامة، ومقت الكذب، ثم ليس هناك ما يحمله على تكرارها. لهذه الصيغة أي صيغة الجمع. لو لم يكن يقصد بها كثرة قصائد الرثاء.

ولئن كان رثاء ابن حزم قليلا نادرا، إلا أنه جاء تعبيراً صادقا عن رقة إحساسه ودقة في تصوير أثر الحادث في نفسه، ويظهر أن المصائب المبكرة التي حلت بالشاعر، قد ساعدته كثيرا على إجادة التفجع، واكبر مثال على ذلك موت حبيبته "نعم" في ريعان شبابها، وما تركته في نفسه من ألم وحزن عظيمين، ويتضح ذلك في قوله: " فجعتني بها الأقدار واخترمتها الليالي ومر النهار، وصارت تالثة التراب والأحجار. وسني حين وفاتها دون العشرين سنة، وهي كانت دوني في السن. فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي، ولا تفتري لي دمة على جمود عيني، وقلة إسعادها، وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف، وبعض أعضاء جسمي العزيزة علي سارعا طائعا، وما طاب لي عيش بعدها، ولا نسيت ذكرها، ولا أنت بسواها ولقد عف حبي لها على ما قبله وحرّم ما كان بعده. ومن مرّاثي فيها قصيدة منها:

كَأَنِّي لَمْ آتَسْ بِالْفَاطِكِ الَّتِي      عَلَى عَقْدِ الْأَبَابِ هُنَّ نَوَافِثُ  
وَلَمْ أَتَحَكَّمْ فِي الْأَمَانِي      كَأَنَّنِي لِإِفْرَاطٍ مَا حُكِّمْتُ فِيهِنَّ عَابِثُ

ومنها

وَيُبِيدِينَ إِعْرَاضاً وَهَنَّ أَوَافُ      وَيَقْسِمَنَّ فِي هَجْرِي وَهَنَّ حَوَائِثُ<sup>(١)</sup>  
وكما يظهر فإن قصيدته في "نعم" لم تأت كاملة في الطوق، وإنما اكتفى منها أو اكتفى الناسخ<sup>(٢)</sup> إذا شئنا بالأبيات الثلاثة السابقة، وهي لا تعطينا صورة واضحة عن بكائه لها، وكل ما نفهمه منها، إنها ساحرة الحديث، وأماني الشاعر عندها وبين يديها بلا حدود، ويشير في البيت الأخير إلى اللائي يتظاهرن بالإعراض عنه وهن يردنه، ويرغبن بوصله وهن يظهرن الهجر.

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٢٤.

(٢) ينظر دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة د. الطاهر أحمد مكي ص ٣٧٦

وعلى هذه الشاكلة أيضا أبدى شدة إحساسه بفداحة الخطب عندما نعي إليه بعض من كان يحب من أصدقائه، فاسودّت الدنيا في عينيه، واضطرم فؤاده نارا، وتمنى لو انه مات قبل حلول هذه الفاجعة حتى لا يحترق بنارها يقول:

وددتُ بأنَّ ظهرَ الأرضِ بطنٌ      وأنَّ البطنَ منها صارَ ظهرا  
وأني متُّ قبلَ ورودِ خطبِ      أتى فأتارَ في الأكبادِ جمرا  
وأنَّ دمي لمن قد بانَ غسْلٌ      وأنَّ ضلوعَ صدري كنَّ قبرا (١)

في رثائه هذا تبلغ عاطفة الأسى أقصى غاياتها لسماعه هذا الخطب الجلل، حيث أشعل هذا النبا في ضلوعه ، وبين أحشائه نار الحب والشعور بالمرارة لدرجة تمنى الموت. فقد تأوه تأوها شجيا تحترق له الأكباد، وتتفطر له النفوس لشدة الفاجعة على نفسه. ولا نستغرب مثل هذه الصورة وتلك المعاناة عن رجل مرهف الإحساس عرف بالوفاء، وصدق العاطفة، وعمق الصداقة الصادقة.

وفضلا عما تقدم عرف ابن حزم شعر المراجعة والمجاوبات على حد تعبير الدكتور بدير متولي حميد. وموضوع المراجعات كما يعرفه الباحث "سؤال وجواب، سؤال مضطرب خائف، وجواب صافح متسامح. وقد تكون المراجعة مشاركة في الألم من تحسر على شباب، أو ضجر من مرض، ويدعو الشاعر لصديقه بالفرج من تلك الغمة التي نزلت به، وقد أثار لدينا شعر من ذلك النوع كتبه أبو عامر بن شهيد لصديقه أبي محمد بن حزم... (٢)

وفي ذلك يقول ابن شهيد وقد طال ألمه و "تزايد سقمه وغلب عليه الفالج..حتى هم بقتل نفسه:

ولما رأيتُ العيشَ ولّى برأسه      وأيقنتُ أن الموتَ لا شك لاحقي  
تمنيتُ أني ساكنٌ في غيابةٍ      بأعلى مهبّ الرّيح في رأسٍ شاهق  
أذُرُّ سقيطَ الحبِّ في فضلِ عيشةٍ      وحيدا وحسني الماءِ ثني المفالق  
خليلي من ذاقِ المنّيّةَ مرةً      فقد ذقتها خمسين قولّةً صادق  
كأنّي وقد حان ارتحالي لم أفرُ      قديما من الدنيا بلمحةٍ بارق

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٢٠.

(٢) قضايا أندلسية. بدير متولي حميد - دار المعارف - القاهرة (ط ٢) سنة ١٩٦٤. ص ١٢٢-١٢٣

عمق تفكير ابن حزم؛ إذ استطاع أن يصور ما في الحياة من تناقض في نفس الزمان والمكان. وعلى ما يبدو فإن هذا الموقف الذي يخيّله الشاعر جعله يدرك عدم متاع الدنيا أكثر من أي وقت مضى، وينصرف إلى الإكثار من العبادة والأعمال الحسنة لأنها خير زاد يلقى به المخلوق خالقه:

كأنَّكَ بالزَّوَارِ لي قد تبادروا	وقيل لهم أودي علي بن أحمد
فيا رَبَّ محزونٍ هناك وضاحكٍ	وكم أدمع تذري وخذ مخدّد
عفا الله عني يوم أرحل طاعناً	عن الأهل محمولاً إلى بطن ملحد
وأترك ما قد كنت مغتبطاً به	وألقى الذي آنست دهرأ بمُرصد
فوا راحتي إن كان زادي مقدماً	ويا نصبي إن كنت لم أتزود <sup>(١)</sup>

وإلى جانب رثاء الأشخاص، هناك نوع آخر من الرثاء نقع عليه في شعر ابن حزم هو ما اصطلح عليه الباحثون باسم رثاء المدن، وما قاله الشاعر في هذا الفن يعود إلى فترة وجوده (بالمرية)، حيث كان لاجئاً بها نجاه بشخصه من الفتن. وتغلب البربر على دورهم بقصر مغيث، ويبدو أن أحد الوراد قد أخبره هنا بما أصبحت عليه قرطبة من جراء تلك الأحداث الدامية، فبكاها نثراً وشعراً.

ومن شعره يبكي منازل في قرطبة، وقد أمحت رسومها وطمست أعلامها، وغيرها الزمن، وأتى على أيامه بها، فراح يبكيها شعراً استهله بتحية إلى قرطبة التي أصبحت خلاء من أهلها، تلفها الوحشة والوحدة والفقر، حتى كأن أحداً لم يسكنها بالأمس، ولم يعمرها أحد لشدة اندراسها، ويستسمحها خروجهم منها، لأنه كان أقوى من إرادتهم، إذ لو استطاعوا لكانت لهم قبراً. ومن ثم يتوسل إلى الدهر

(١) الذخيرة ق ١/١، ص ١٧٢.

-لشدة ما هو فيه من اغتراب نفسي - أن يبلغ تحيته وشوقه إلى كل ساكنيها اينما وجدوا.

سلامٌ على دارِ رحلنا وغودرتْ      خلاءٌ من الأهلين موحشةً قفراً<sup>(١)</sup>  
تراها كأن لم تغن بالأمس بلقعاً<sup>(٢)</sup>      ولا عمرت من أهلها قبلنا دهرأ  
فيا دارُ لم يقفرك منا اختيارنا      ولو أننا نستطيع كُنت لنا قبرا  
ولكن أقداراً من الله أنفدَتْ      تدمرنا طوعاً لِمَا حلَّ أو قهراً  
ويا خير دارٍ قد تركت حميدةً      سقتك الغواذي ما أجلَّ وما أسرى  
ويا مُجلتي تلك البساتين حفها      رياض قواريرٍ غدت بعدنا غبرا  
ويا دهرٌ بلغ ساكنيها تحيتي      ولو سكنوا المروين<sup>(٣)</sup> أو جاوزوا النهر<sup>(٤)</sup>

إنها اللوعة والأسى على العز الزائل، والجمال الآفل، والأنس الذي يمور حيوية وقد تحول إلى وحشة في أرض يباب، ومع كل هذه اللوعة، وذلك الأسى نلاحظ وفاء لتلك الديار التي لو خير لاختارها قبرا له، وهل بعد ذلك من وفاء؟ ويرجع ابن حزم سبب خراب هذه المدينة إلى الدهر، إلا أنه لا يأخذ عليه بشدة وقساوة، كما يفعل الكثير من الشعراء في مثل هذا الموقف. ويطلب من ساكنيها الصبر على حكمه فيهم وإن كان طعم الصبر مرّاً ثقيلاً، لأن الدهر الذي سطا بهم اليوم، هو نفسه الذي كان يفرحهم بالأمس ويزين لهم العيش، وكأننا بالشاعر من خلال كلامه يعترف للدهر بالجميل على الرغم من سطوته فيهم:

(١) الرسائل، ج ١، ص ٣١٢.

(٢) بلقعاً: المكان الخالي من كل شيء، المعجم الوسيط، ج ١، ص ٦٩، مطبعة مصر ١٩٦١م.

(٣) المروين: مثنى مرو وهما مدينتان بخراسان: مرو الرود، ومرو الشامجان، معجم البلدان ج ٥/ص ١١٢

وما بعدها.

(٤) النهر: جيحون وهو وادي خراسان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩٦، وما بعدها.

## الفصل الخامس

### الهجاء

لم يكثر ابن حزم من القول في هذا الغرض، فهو لم يكن هجاءً بطبعه، بل كان رجلاً وقوراً، لا ينطق بالكلمة المقذعة البشعة، لأنها لم تكن لتوافق طبعه. ومن ثم فقد اتجه هجاؤه إلى ذم المعاني الخسيسة كالكذب وغيره. ومن ذلك قوله يذم عبد الله بن يحيى الجزيري<sup>(١)</sup> الذي "كان طبع الكذب قد استولى عليه واستحوذ على عقله، وألفه ألفة النفس الأمل، ويؤكد ثقله وكذبه بالإيمان المؤكدة المغالطة مجاهراً بهاء، أكذب من السراب مستهتراً بالكذب مشغولاً به..."<sup>(٢)</sup>. ومن شعره فيه:

وأكذب من حسن الظنون حديثه	وأقبح من دين وفقير مُلَازِم
أوامرُ ربِّ العرش أضيعُ عنده	وأهون من شكوى إلى غير راحم
تجمع فيه كلَّ خزي وفضحة	فلم يبقَ شتماً في المقالِ لشاتم
وأثقل من عدلٍ على غير قابلٍ	وأبردُ برداً من مدينةٍ سالم
وأبغض من بين وهجرٍ ورقبة	جمعن على حرانَ حيران هائم <sup>(٣)</sup>

فالشاعر يهدف من خلال هذه الأبيات إلى تجريد مهجوه تجريداً كاملاً من فضيلة الصدق، فيذمه بشدة كذبه، ويصف حديثه بأقبح من صفتي الدين والفقو إذا لازما إنساناً، ومن ثم ينقض عليه من جهة الدين فيرميه بالضعفة والهوان في أوامر رب العرش، وينعته بمستهتر تجمع فيه كل خزي، وفضحه حتى غدا عند

(١) لم نعثر على ترجمة.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ١٧٨.

(٣) الرسائل، ج ١، ص ١٧٩.

أمورٌ وجَدَّكَ ذاتُ اشتباهٍ

ألا هكذا فليكن ذو النواهي

بأرضٍ تحفُّ بشوكِ العضاة

مهبَّ الرياحِ مجرى المياه<sup>(١)</sup>

يبيع ويبتاعُ عرضاً بعرضٍ

ويأخذ ميماً بإعطاء هاءٍ

ويُبدلُ أرضاً تُغذي النباتَ

لقد خاب في تجره ذو ابتياع

إن ما يلفت النظر في هاتين المقطوعتين، اعتماد الشاعر على أسلوب تجسيم المفارقات، وهو الأسلوب القائم على الجمع والمقابلة بين حالين متضادين، أو لنقل رغبتين متباينتين وذلك لتمثيل ما يضطرب به مهجوه من متناقضات نفسية.

والشاعر في أبياته هذه، صريح إلى أبعد حدود الصراحة، جريء إلى أقصى درجات الجرأة، لا يلتوي، ولا يلمع، بل يقول كلمته بكل عنف وصراحة ولا يخفي ما في هذا الذم من سخرية وإصلاح خلقي، وكأننا بالشاعر كان يهدف من وراء ذلك إلى تطهير النفوس، مما علق بها من الشوائب التي تغضب الله، ولا يرضى بها الدين الحنيف.

ومثل هذه النظرة أيضاً تجدها فيما قاله مصرحاً بأحد أصحابه، وكان من "أهل الطلب والعناية والورع وقيام الليل، واقتفاء آثار النساك وسلوك مذاهب المتصوفين القدماء باحثاً مجتهداً"<sup>(٢)</sup>. إلا أنه امتحن ببليّة مع بعض الغلمان فاننتشر خبره و"سقط من عيون الناس كلهم بعد أن كان مقصداً للعلماء، ومنتاباً للفضلاء، ورذل عند إخوانه جملة"<sup>(٣)</sup>، فلامه ابن حزم لوماً عنيفاً على ذلك، مما جعله يثور عليه ويتربص به الدوائر فقال فيه صاحبنا مشهراً:

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٨٠.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ٢٧٦.

(٣) الرسائل، ج ١، ص ٢٧٧.

وهذه الحكم كما يظهر مستمدة من تجارب شاعرنا وآرائه الخاصة في الحياة، وقد كانت نفس ابن حزم غنية بذلك؛ لأنه تقلب بين سراء العيش وضرائه، واتصل بالناس اتصالاً وثيقاً عميقاً على اختلاف أحوالهم، وتتوع مذاهبهم ومشاربهم.

وهذا يدفعنا إلى القول إن ابن حزم كان يصدر في هجائه عن تجارب واقعية، تدل على عمق خبرته بالحياة الاجتماعية التي كان يعيشها، ونضج رؤيته في شؤونها المختلفة، وقد لا نخالف الصواب إذا قلنا إن هجاء شاعرنا يبدو في جوهره أقرب إلى النقد الخلفي منه إلى الهجاء المتعارف عليه، وكما عرف ابن حزم هذا النوع من الهجاء، عرف أيضاً فن النقائض، الذي يشارك فيه بقصيدة مطولة يجدر بنا أن نقف عندها وقفة تأمل وتحليل.

### نقيضة ابن حزم:

تعد نقيضة ابن حزم المطولة من التجارب المتميزة في شعر الشاعر عامة. والقصيدة كما يدل عليها شكلها ومضمونها تدخل في باب شعر النقائض. وذلك لاحتوائها على الشروط الأساسية التي يقوم عليها هذا الفن، إذ يرد صاحبنا فيها على خصمه بنفس بناء قصيدته الخارجي، وموسيقاها العامة، أي من وزنه وقافيته، بالإضافة إلى تقيده بما يتصل ببنائها الداخلي، والعمل على نقضه.

أتاني مقالٌ لامرئٍ غيرِ عالمٍ      بطُرقٍ مجاري القولِ عند التَّخاضِ  
تَخَرَّصَ ألقاباً له جدَّ كاذبٍ      وعدَّدَ أثراً له جدَّ واهمٍ<sup>(١)</sup>

ولما وقعت قصيدة نيقفور في يد ابن حزم، واردة من بلاد المشرق، اهتز لها شاعرنا "غضباً لله ولرسوله ولدينه كما ذكر من رآه"<sup>(٢)</sup> وارتجل قصيدته المشهورة يرد فيها على ما قاله الشاعر المرتد.

وأول ما يظهر من نقيضة ابن حزم أنها من غرر الشعر السياسي الذي يمثل العصية الدينية في أوسع مداها، انتصر فيها للإسلام والمسلمين، تحقيقاً لرسالة الدين الحنيف الإنسانية، التي حاول هؤلاء الأعداء الحط من شأنها وحصرها في حدودها الضيقة، لينشروا بالمقابل دينهم المسيحي شرقاً وغرباً.  
يقول ابن حزم:

من المُحتمى بالله ربَّ العوالمِ      ودين رسول الله من آل هاشمِ  
محمد الهادي إلى الله بالتَّقَى      وبالرُّشد والإسلام أفضل قائمِ  
عليه من الله السلام مُردِّداً      إلى أن يوافي البعث كلُّ العوالمِ  
إلى قائلٍ بالإفك جهلاً وضلَّةً      عن النَّفقور المنبري في الأعاجمِ<sup>(٣)</sup>

ويعد تتبع معاني الخصم وتفنيدها، المبدأ الأساسي الذي قامت عليه قصيدة شاعرنا فإذا قال الشاعر نيقفور مفتخراً بانتصار جيش الروم واستيلائهم على الأراضي الإسلامية:

ثغوركم لم يبق فيها لوهنكم      وضعفكم إلا رسومُ المعالمِ

(١) طبقات الشافعية الكبرى، ج ٣، ص ٢٠٩.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير، ج ١١، ص ٢٤٧.

(٣) طبقات الشافعية، ج ٣، ص ٢١٤، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٤٧.



فَتَحَنَّا ثُغُورَ الأَرْمِينِيَّةِ<sup>(١)</sup> كُتَّهَا      بَفَتَيَانِ صَدَقِ كَاللِّيُوثِ الضَّرَاغِمِ<sup>(٢)</sup>

أجابه ابن حزم معلقاً على الهزيمة التي لحقت بالمسلمين على أيدي الروم، بأنها كانت مجرد نكبة تافهة، بإمكانها أن تحصل لأي إنسان كريم حر، وابن كريم لأنها جاءت نتيجة غفلة اعترت جيوش المسلمين ليس إلا. ولهذا فهي لا تستحق كل هذا الفخر والتبجيل، خصوصاً إذا قيست بانتصارات المسلمين الكثيرة الرائعة التي حققوها على العدو عبر الفتوحات المجيدة:

وَلَا عَجَبٌ مِنْ نَكْبَةٍ أَوْ مَلَمَةٍ	تُصِيبُ الْكَرِيمَ الْحَرَ وَابْنَ الْأَكَارِمِ
وَلَوْ أَنَّهُ فِي حَالِ مَاضِي جُدُودِهِ	لَجَرَّ عَنَّمْ مِنْهُ سَمُومَ الْأَرَاقِمِ
عَسَى عَطْفَةُ اللَّهِ فِي أَهْلِ دِينِهِ	تُجَدِّدُ مِنْهُمْ دَارِسَاتِ الْمَعَالِمِ
فَخَرْتُمْ بِمَا لَوْ كَانَ فَهْمٌ يَرِيكُمْ	حَقَائِقَ دِينِ اللَّهِ أَحْكَمَ حَاكِمِ
إِذَنْ لَعَرَّتْكُمْ خَبْلَةٌ عِنْدَ ذِكْرِهِ	وَأُخْرِسَ مِنْكُمْ كُلَّ قَبِيلٍ مُخَاصِمِ
سَلْبَانَكُمْ دَهْرًا فَفَزْتُمْ بِكَرَّةٍ	مِنَ الدَّهْرِ أَفْعَالِ الضَّعَافِ الْعِزَائِمِ
فَطَرْتُمْ سُورًا عِنْدَ ذَاكَ وَنَخْوَةً	كَفَعَلَ الْمُهَيْنِ النَّاqَصِ الْمُتَعَاضِمِ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا فِي تَضَاعِيفِ غَفْلَةٍ	عَرَّتْنَا وَصَرَفُ الدَّهْرِ جَمُّ الْمَلَا حِمِ <sup>(٣)</sup>

وهنا نستطيع أن نلمس ما يحس به الشاعر من المرارة والألم أمام تكالب

الروم على الديار الإسلامية في المشرق والغرب.

ويقترن هجاء ابن حزم للروم في هذه القصيدة بفخره للمسلمين، وذكر

أمجادهم وتسجيل الانتصارات التي حققوها على الأعداء مبرزاً بذلك تحدي

(١) أرمينية، ناحية بن أذربيجان والروم، ذات مدن وقلاع وقرى كثيرة -أثار البلاد وأخبار العباد- للقرظيني.

دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٠م، ج ١١، ص ٢٤٧.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ج ٣، ص ٢٠٥.

(٣) طبقات الشافعية، ج ٣، ص ٢١٥.

المسلمين وعظمتهم في جميع المجالات، والتلازم بين الهجاء والفخر في هذه النقيضة أمر طبيعي لأنهما "الغرضان الرئيسيان في كل نقيضة"<sup>(١)</sup>.

وَتَبُّتُمْ عَلَى أَطْرَافِنَا عِنْدَ ذُلِّكُمْ      وَثُوبَ لُصُوصٍ عِنْدَ غَفْلَةٍ نَائِمٍ  
أَلَمْ نَنْتَزِعْ مِنْكُمْ بِأَيْدٍ وَقُوَّةٍ      جَمِيعَ بِلَادِ الشَّامِ ضَرْبَةً لَازِمٍ  
وَمِصْرَ وَأَرْضَ الْقَيْرَوَانِ بِأَسْرَهَا      وَأَنْدَلُسَ قَسْرًا بِضَرْبِ الْجَمَاجِمِ  
أَلَمْ تَنْتَصِفْ مِنْكُمْ عَلَى ضَعْفِ حَالِهَا      صَقْلِيَّةً فِي بَحْرِهَا الْمَتَلَاظِمِ<sup>(٢)</sup>

وقد وجد ابن حزم في نصرانية نيقفور وقومه منفذاً سهلاً إلى هجائهم، إذ لم تكذب نقيضته فيهم من الإشارة إلى دينهم، وتعييرهم بأناجيلهم المحرفة وسجودهم الوهمي للصليب، ونعتهم بعقول الهاملات السوائم:

أَتَقَرُّنُ يَا مَخْذُولَ دِينٍ مُتَلَتِّبٍ      بَعِيدٍ عَنِ الْمَعْقُولِ بَادِي الْمَآئِمِ  
تَدِينُ لِمَخْلُوقٍ يَدِينُ عِبَادَهُ      فَيَاكَ سَحَقًا لَيْسَ يَخْفَى لِكَاتِمِ  
أَنَاجِيلُكُمْ مَصْنُوعَةٌ بِتَكَاذُوبٍ      كَلِمَ الْأُلَى فِيمَا أَتَوْا بِالْعِظَائِمِ  
وَعُودُ صَلِيبٍ لَا تَزَالُونَ سَجْدًا      لَهُ يَا عَقُولَ الْهَامَلَاتِ السَّوَائِمِ<sup>(٣)</sup>  
تَدِينُونَ تَضَلُّالًا بِصَلْبٍ إِلَهُكُمْ      بِأَيْدِي يَهُودٍ أَرْدَلِينَ الْأَيْمِ<sup>(٤)</sup>

وينبغي أن نشير هنا إلى أن ابن حزم لم يكن غرضه الأساسي البراعة الشعرية في هذه القصيدة، بقدر ما كان الإشارة والإفتخار بمآثر المسلمين ومجدهم

(١) العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، د. إحسان النص، دار القیطة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت (بدون ط)، سنة ١٩٦٢م، ص ٤٢٢.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ج ٣، ص ٢١٥.

(٣) الهاملات السوائم: الأبل المسيية التي لا راعي لها، لسان العرب، ج ١١ مادة همل.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ج ٣، ص ٢١٩-٢٢٠.

ولعل هذا ما جعله يكثر من التباهي على خصمه بالإسلام الحنيف، ويفاخره بالعرب ومآثرهم ويفضلهم على سائر الأمم:

وَكَمْ أَيْةٍ أَبَدَى النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ	وَكَمْ عَلَمٍ أَبْدَاهُ لِلشَّرِكِ حَاطِمٌ
تساوى جميع الناس في نصرِ حقِّه	فللكلِّ من إعظامه حالُ خادِمٍ
فَعُربٌ وَأَحْبُوشٌ وتُركٌ وبربرٌ	وفرسٌ بهم قد فازَ قِدْحُ المُساهِمِ
وقبطٌ وأنباطٌ وخَزُرٌ وديلمٌ	ورومٌ رموكم دونه بالقواصمِ
أَبَوْا كُفَرَ أسلافٍ لَهُم فَتَحَنَّفُوا	فَأَبَوْا بَخْطٍ في السَّعَادَةِ جَائِمِ
به دخلوا في ملَّةِ الحقِّ كُلُّهُمْ	ودانوا لأحكامِ الإلهِ اللّوازمِ <sup>(١)</sup>

وإلى جانب ظاهرة تباهي الشاعر بالدين الإسلامي، ومآثر المسلمين، نجده يفخر ويعتز بالعلوم التي عرفت بها الحضارة الإسلامية، وينعت خصمه بصفة الحمير "الذاهبات المحازم" دلالة على جهلهم وقلة تفكيرهم. ثم يخلص بعد ذلك إلى نقد قصيدة نيقفور، ووصفها بالشعر البارد المتخاذل، ذي المعاني الضعيفة وغير المحكمة، وفي الوقت نفسه يعتد بنفسه ويعتز ويزهو بقصيدته ويصفها بعقد فيه زمرد ودر وياقوت يرسله إليهم:

لنا كلُّ علمٍ من قديمٍ ومُحَدَّثٍ	وأنتم حميرٌ ذاهباتُ المحازمِ
أتيتم بشعرٍ باردٍ متخاذلٍ	ضعيفٍ معاني النَّظْمِ جَمَّ البلاغمِ
فدونكها كالعقد فيه زُمُرْدٌ	وُدُرٌ وياقوتٌ بإحكامِ حاكمِ <sup>(٢)</sup>

إن هذه القصيدة أقرب إلى أن تكون مديحاً للإسلام ونقضاً للنصرانية، وهذا ما نلاحظه من خلال متابعة أبياتها، إذ إن ابن حزم، وهو الفقيه المسلم الورع، وجد

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ج٣، ص ٢٢١.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ج٣، ص ٢٢١-٢٢٢.

في قصيدة نيقفور محاولة لتحطيم أعز ما يملك ابن حزم، وهو إيمانه بالله وبدينه فكان طبيعياً أن تبرز حساسية ابن حزم وعنفه في الرد على نيقفور، وكأنني به في رده هذا يقارن ذلك القائد المسلم في رده على رسالة بعثها إليه نيقفور متوعداً فقال له: (من أمير المسلمين إلى نيقفور كلب الروم! الجواب ما تراه لا ما تسمعه ونقيضه ابن حزم؛ إذ بلغت مئة وسبعة وثلاثين بيتاً، مما جعلها تفقد كثيراً من حلاوة الانطباع، وأصبحت شيئاً متكلفاً.

والقصيدة ليس من النمط الجيد في التعبير الأدبي "لأن الموضوع المعالج - جوانب من الجدل الديني - من موضوعات الدين والفلسفة، لا من الموضوعات الوجدانية"<sup>(١)</sup>.

وقد كثرت فيها ثقافة الشاعر التاريخية التي تجلت في كثرة إشاراتِهِ إلى ماضي المسلمين وانتصاراتهم ووقائعهم.

ومهما يكن فإن قصيدة شاعرنا هذه تدل على أن ابن حزم كان يفهم المناقضة كما فهمها فحول العصر الأموي، أي أنه عرف المناقضة في شكلها الفني المتطور وهذا ما نستشفه من حرصه على التزام بحر خصمه، ورويّه، ونقض معانيه أيضاً.

(١) ابن حزم الكبير، د. عمر فروخ، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت (ط ١)، ١٩٨٠، ص ٨٤.

## الفصل السادس

### شعر الطبيعة

لم يكن الأندلسيون يعيشون بمعزل عن بيئتهم الطبيعية الغناء، بل كانوا مرتبطين بها إلى درجة الافتتان، إذ كانوا يخرجون إلى منتزهاتها للتمتع بجمالها والاستمتاع بمفاتنها. كما كانوا يشاركونها بهجتها، فعقدوا لذلك مهرجانات واحتفالات، وانتشر بينهم أمر الدعوات التي كان يتوجه بها بعضهم إلى بعض في فصل الربيع للخروج إلى المنتزهات، في البساتين وغيرها حيث كانوا يتهادون الورود والنواوير والأزاهير<sup>(١)</sup>. وكان الشعراء أنفسهم يخرجون جماعات وفرادى ليمتعوا النفس بمناظر الطبيعة الخلابة، فتتطق ألسنتهم بما أثارتها هذه الطبيعة الجذابة في نفوسهم من أحاسيس وخلجات<sup>(٢)</sup>.

ومثل هذا الأمر قد حصل مع ابن حزم، فلنستمع إليه يحدثنا عن تجربته في هذا العالم الساحر إذ يقول: "تنزهت أنا وجماعة من إخواني، من أهل الأدب والشرف، إلى بستان لرجل من أصحابنا، فجلنا ساعة، ثم أفضى بنا القعود إلى مكان دونه يتمنى فتمددنا في رياض أريضة، وأرض عريضة للبصر فيها منفسح، وللنفس لديها مسرح بين جداول تطرد كأباريق اللجين، وأطياف تغرد بألحان تزدى وهواء سجع، وأخلاف جلاس تفوق كل هذا، في يوم ربيعي ذي شمس ظليلة<sup>(٣)</sup>.

(١) الأدب الأندلسي والمغرب، د. محمد رضوان الداية، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق سنة ١٩٨٠-١٩٨١م.

ص ٨.

(٢) شعر الطبيعة في الأدب العربي، د. سيد نوفل، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٩٤٥، ص ٢٦١.

(٣) الرسائل، ج ١، ص ٢٣٦.

وبدلنا هذا النص على كلف ابن حزم الشديد بطبيعة بلاده الرائعة، مما جعله يصور لنا هذا المشهد الزاهي في بستان لرجل من أصحابه بدقة، فجاءت صورة حية مكتملة الجوانب حتى ليخيل إلى القارئ، أنه يراها ماثلة أمام عينيه.

كانت الطبيعة في نظر شاعرنا المجال الفسيح الذي يستسلم فيه لكل أنواع المتع والفرحة، وهذا ما نلمسه في هذه المقطوعة أيضاً حيث يقول<sup>(١)</sup>:

ولمّا تروّحنا بأكنافِ روضةٍ	مهدلةُ الأفنانِ في تَرْبِها الندي
وقد ضحكتُ أنوارها وتضوّعت	أساورها في ظل فيء ممددٍ
وأبدت لنا الأطيّارَ حسنَ صريفها <sup>(٢)</sup>	فمن بين شاكٍ شجوهٌ ومُغردٌ
وللماءِ فيما بيننا متصرّف	وللعينِ مُرتادٌ هناك واليدِ
وما شئتُ من أخلاقِ أروعٍ ماجدٍ	كريمِ السجايا للفقارِ مُشيّد
تَنغصّ عندي كلّ ما قد وصفته	ولم يهنني إذْ غاب عني سيّدي
فياليتني في السجنِ وهو مُعانقي	وأنتم معاً في قصر دار المجدد <sup>(٣)</sup>

كما يظهر فإن الشاعر في هذه القصيدة يسجل لنا ما رأيته عيناه من مناظر طبيعية في أكناف هذه الروضة الساحرة، فيشخصها، ويجعلها حية، تعي وتتصرف بإرادة، فالأنوار من حولهم قد ضحكت، وتضوّعت أساورها، والأطيّار بما فيها الشاكي شجوه والمغرد قد أبدت لهم حسن تصاريفها.

ويخيل إلينا ها هنا أن الشاعر كما يرى في الطيور المغردة صور أصحابه فرحين، وفي الطيور الشجية نفسه الباكية من غياب حبيبته في ذلك اليوم المرح

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٣٦.

(٢) صريفها: صوتها لسان العرب، ج ٩، مادة (صرف).

(٣) دار المجدد: قصر مشهور في قرطبة، نفح الطيب، ج ١، ص ٤٦٤.

لونه لونُ عاشقٍ مستهَام وهو لا شك هائمٌ بالبهار<sup>(١)</sup>

إن الذي يلفت النظر في هذه المقطوعة هو غياب ذات الشاعر التي كان من المفترض أن يعبر من خلالها عن الطبيعة التي كان يصف. وهو لا يستمد صورته من نفسه، بل يلجأ إلى مهارته العقلية والبلاغية، ويستعين بما يحفظه من صور وتعبير جاهزة من عالم الحب، فيشبه النرجس البديع بصب، لونه لون عاشق هائم بالبهار وهي كما ترى "صورة جميلة، لولا أن التعبير في (لا شك) ذهب بجانب من جمالها، ولو ترك مجالاً للحيرة والتردد لكانت أكثر جمالاً وأشد إثارة"<sup>(٢)</sup> مما جعلها تسقط في السطحية، ولا تترك أي أثر في المتلقي، بالإضافة إلى خلوها من التجربة الحية، وصدق العاطفة، وهذا ما يؤكد ابن حزم نفسه في حديثه عن مناسبة هذه الأبيات إذ يقول: "وكان سبب هذه الأبيات أن ضنى العامرية إحدى كرائم المظفر عبد الملك بن أبي عامر، كلفتني صنعتها فأجبتها..."<sup>(٣)</sup>.

واضح مما سبق ميل الشاعر في وصفه للطبيعة إلى الافتتان العقلي والابتكار في الصور والتشبيهات، وحينما يتجاوب مع نفسه ومشاعره يصل إلى غاية الإعجاب، إذ إنه ينقل في نفوسنا أثراً مشابهاً.

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٥٥.

(٢) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، د. الطاهر مكي، ص ٣٨٠.

(٣) الرسائل، ج ١، ص ٢٥٥.

ومما يدعو للأسف أننا لم نعثر للشاعر في هذا الفن إلا على عشرة أبيات وهي بقايا قصيدة قالها في مدح أبي بكر هشام بن محمد، أخي أمير المؤمنين عبد الرحمن المرتضى، وقد بدأها بمقدمة غزلية تقليدية يصف فيها حالته النفسية وأثر ساعة وداع الحبيب فيها إذ كانت تشبه ساعة الحشر، وكيف أنه قضى ليلته تلك التي أمست تشبه ليلة النشر لشدة البين، ثم يتذكر الأيام الليالي الغضة الباسمة التي قضاهم مع بعض في غمرة وتآلف، ويشبها بالنيلوفر، فيرى في تفتح أوراقه البيضاء أيامهم البهيجية وأوسطه الليل المقصر للعمر. ثم يستدرك أنها لا شك كانت أحلى الأيام إلا أنها أعقبت بالغدر:

أساعةٌ توديعك أم ساعةُ الحشر	وليلةٌ بيني منك أم ليلةُ النشر
وهجرُكَ تعذيبُ الموحد ينقضي	ويرجو التلاقي أم عذابُ ذوي الكفر
سقى الله أياماً مضت وليالياً	تحاكي لنا النيلوفر الغصّ في النشر
فأوراقه الأيامُ حسناً وبجته	وأوسطه الليلُ المقصّر للعمر
لهوئنا بها في غمرةٍ وتآلف	تمرُّ فلا ندري وتأتي فلا ندري
فأعقبنا منه زمانٌ كأنه	ولا شكَّ حسنُ العقد أعقبَ بالغدر <sup>(١)</sup>

والم تأمل لوصف ابن حزم هذا يدرك أثر ثقافته الدينية واضحة في تركيب صورته، ومن ذلك تشبيهه لساعة وداع الحبيب بساعة الحشر، وليلة بينه منه بليلة النشر وعذاب ذوي الكفر.

وهكذا يركز ابن حزم على البوح بما يعاينيه من الفراق وتذكر الأيام السعيدة محاولاً في الوقت نفسه أن يبعث في نفسه الأمل ويطلب منها ألا تيأس، وأن تلوذ

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٠٣.



بالصبر، كما صبر بنو أمية عندما صرف الملك عنهم، متمنياً لزمانها العودة بوجه مقبل غير مدبر.

فلا تيأسي يا نفسُ علَّ زماننا يعودُ بوجهٍ مقبلٍ غيرَ مدبرٍ  
كما صَرَفَ الرحمنُ مُلْكَ أميةٍ إليهم ولوذي بالتحمل والصبر<sup>(١)</sup>

وبعد هذه المحاولة في إبعاد اليأس عن نفسه وحثها على الصبر والتمني بعودة الأيام السعيدة، يخلص الشاعر إلى مدح هشام بأربعة أبيات ولولا إشارته إلى أنها في درج هشام لما أدركنا ذلك، ففي الأبيات مدحه بسعة الثقافة، وأنه واسع العلم، وأنه يمثل الروح بالنسبة للجسد، وأنه تهدي إليه الأتوات، وأن تقبله لها منه يشكر عليها، إنها أنهار وهو بحر والنهر مهما غزر وطما ينتهي به الحال إلى البحر.

أليس يحيط الروحُ فينا بكلِّ ما دنا وتناهى وهو في حُجُبِ الصدرِ  
كذا الدهرُ جسمٌ وهو في الدهرِ روحه محيطٌ بما فيه وإن شئت فاستقر ومنها:

إِتاوتهم تُهدى إليه، ومنةٌ تقبُّلُها منهم تقاومُ بالشُّكرِ  
كذا كلَّ نهرٍ في البلاد وإن طمتْ غزارته ينصبُّ في لججِ البحرِ<sup>(٢)</sup>

إن أهم ما يميز هذه الأبيات، قوة خيال الشاعر، وإحكامه التشبيهي، وإن كنا نلمس فيها ميله إلى العناية بالصفة والمبالغة، إلا أنها مبالغة سائغة لأنها تقرب إلينا ما كان يعتلج في نفس شاعرنا من حماسة لإعادة الخلافة الأموية إلى أصحابها.

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٠٣.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ٢٠٤.

## القسم الثاني

ملاح شعر ابن حزم الفنية

ويبدو أن ابن حزم كان يميل إلى اختيار الألفاظ إذ جاءت كلماته فخمة جزلة  
وأساليبه رصينة، وتراكيبه محكمة مع تسلسل المحسنات البديعية، إلى جانب بعض  
الألفاظ السهلة القريبة التناول. ومن ضمن المميزات البارزة التي اتسم بها أسلوبه  
كثرة الطباق والمقابلة، وأمثلة ذلك قوله الذي يصف فيه الهجر والوصل:

ما أَقْبَحَ الهَجَرَ بَعْدَ وَصْلٍ      وأَحْسَنَ الوَصْلَ بَعْدَ هَجْرٍ  
كالوَفْرِ تَحْوِيهِ بَعْدَ فَقْرٍ      والفَقْرِ يَأْتِيكَ بَعْدَ وَفْرِ<sup>(١)</sup>

وقوله في موضوع عزة النفس

وأَجْعَلُ ذُلَّ النَّفْسِ عِزَّةَ أَهْلِهَا      إذا هِيَ نَالَتْ مَالَهَا فِيهِ مَذْهَبُ  
قَفْدٍ يَضَعُ الْإِنْسَانَ فِي التُّرْبِ وَجْهَهُ      ليَأْتِيَ غَدًا وَهُوَ الْمَصُونُ الْمُقَرَّبُ  
فَذُلٌّ يَسُوقُ الْعِزَّ أَجْوَدُ لِلْفَتَى      من الْعِزِّ يَتْلُوهُ مِنَ الذُّلِّ مَرْكَبُ<sup>(٢)</sup>

ويقول في معنى الهجر

لَعَلَّكَ بَعْدَ عَتَبِكَ أَنْ تَجُودَا      بما مِنْهُ عَتَبْتُ وَأَنْ تَزِيدَا  
فَكَمْ يَوْمٍ رَأَيْنَا فِيهِ صَحْوًا      وَأُسْمَعْنَا بِآخِرِهِ الرُّعُودَا  
وعَادَ الصَّحْوُ بَعْدُكُمَا عَلِمْنَا      وَأَنْتَ كَذَاكَ نَرْجُو أَنْ تَعُودَا<sup>(٣)</sup>

لقد استطاع الشاعر بقوة ذكائه، وشدة ملاحظاته أن يصور لنا جمال الوصل  
وقبح الهجر في البيتين الأولين معتمداً في ذلك على التقابل والتطابق في المعاني  
والأوصاف. وعلى شيء من المفارقات مما جعل الصور تزداد وضوحاً وإشراقاً  
وهذا ما نلمسه أيضاً في المقطوعتين الثانية والثالثة من الأمثلة السابقة الذكر.

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٠٢.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ١٩٢.

(٣) الرسائل، ج ١، ص ١٩٧-١٩٨.

ومن المحسنات البديعة الأخرى التي تميز بها أسلوب ابن حزم "الجناس" وإن كان يأتي عنده قليلاً، إلا أنه في نسق تعبيرى منسجم متناغم لا تتأفر فيه بحيث يعطي نوعاً من الإيقاع الموسيقي الخفي، يضاف إلى موسيقا الوزن والقافية مما يجعل المقطوعة تثير انتباه المتلقي، وتهز مشاعره، ومن أمثلة ذلك قوله:

كُلُّ بَيْتٍ واقِعٌ      فمرجى لم يفتُ  
لا تعجّل قنطاً      لم يفتُ من لم يمتُ  
والذي قد مات فال      يأس عنه قد ثبت (١)  
وقوله: أساعة توديعك أم ساعة الحشر      وليلة بيني منك أم ليلة النشر (٢)  
وقوله:

كيف أذم النوى وأظلمها      وكل أخلاق من أحب نوى  
قد كان يكفي هوى أضيق به      فكيف إذ حلّ بي نوى وهوى (١)

واضح ميل الشاعر في هذه الأبيات إلى الجناس ويظهر هذا في قوله "يفت ويمت" و "هوى ونوى وهوى". ويبدو لنا من خلال هذه الأمثلة أن ابن حزم كان كثير التوفيق في إيجاد مثل هذا التلاؤم بين هذه الألفاظ من جهة، وبينها وبين المعاني من جهة أخرى، مما يضيف على الأبيات نوعاً من التجاوب النفسي والإيقاع الموسيقي الممتع.

ومن مميزات أسلوب ابن حزم أيضاً إتباعه للأسلوب القصصي، وتقديم الموضوع المطروق في صورة حوار، هذه الميزة وإن لم توجد في قصائده ومقطوعاته كلها إلا أنها ظاهرة في بعضها.

(١) الرسائل، ج ١، ص ٢٢٣.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ٢٠٣.

والحوار كما نعرف ليس ظاهرة جديدة في الشعر العربي بل لقد عرفه الشعراء منذ الجاهلية \* واشتهر به عمر بن أبي ربيعة من بعد، ولكن الفرق كبير بين ما نلمح عند الجاهليين من ذلك وبين صنيع عمر فيه "إن عمر خرج به عن أن يكون لمحة خاطفة ترد عرضاً في شعر شاعر إلى أن يكون بعض مذهبه في القول وأسلوبه في التعبير" (٢).

والحوار أسلوب يضيف على الشعر حيوية وحركة، وينفي عنه الجمود والرتابة، لأنه ينقلنا إلى الجو الذي قيلت فيه القصيدة. ولعل خير ما يمثل هذه الخاصية في شعر ابن حزم، هذه القصيدة التي يروي لنا فيها، بأسلوب حوارى ممتع قصة طريفة جرت بينه وبين طبيب ساذج، مفادها أن ابن حزم كان قد أمتنع عن حبيبته وحل بينهما حجر، وظل يكتم ذلك حتى بدا عليه السقام والضنى والتحول، فكتبه الطبيب لما آل إليه حال صاحبا، وطلب منه أن يتداوى، وعن ذلك يحدثنا ابن حزم فلنستمع إلى ما دار بينهما من حديث وإلى ماذا توصلا

يقول لي الطبيب بغير علم	تداو فانت يا هذا عليل
ودائي ليس يدره سوائي	ورب قادر ملك جليل
أكتمه ويكشفه شهيق	يلازمني وإطراق طويل
ووجه شاهدات الحزن فيه	وجسم كالخيال ضن بخيل

(١) الرسائل، ج ١، ص ١٨٥.

\* وممن اشتهروا به في الجاهلية امرؤ القيس، فقد أتى بحوار بينه وبين عنيزة في معلقته حيث يقول:

تقول وقد مال الغيظ بنا معا      عقرت بعيري يا أمراً القيس فانزل

فقلت لها سيري وأرخى زمامه      ولا تبعديني من حناك المعال

الديوان، ص ١١-١٢.

(٢) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، د. شكري فيصل - دار العلم للملايين، بيروت، ط ٦ سنة

١٩٨٢م، ص ٥٧٤.

أَلَمْ تَرَ أَنِّي ظَاهِرِي، وَأُنِّي  
على ما بدا حتى يَقُومَ دَلِيلُ<sup>(١)</sup>  
وفي ذلك يقول أيضاً مجاهراً الملاً إنه لا يأخذ بالرأي والقياس، ويقف عند  
حدود النص:

أُشْهِدُ اللَّهَ وَالْمَلَائِكَةَ أَنِّي  
لا أرى الرأيَ والمقاييسَ ديناً  
حاشَ لله أن أقولَ سوى ما  
جاء في النصِّ والهوى مُسْتَبِينَا  
كيف يخفى على البصائرِ هذا  
وهو كالشمس شُهْرَةً وَيَقِينَا<sup>(٢)</sup>

وابن حزم - كما هو معروف - أحد رجال الدين المشهورين، فلا غرابة إذا  
رأينا بلاغة القرآن الكريم ونهجه العالي قد أثرا في شعره تأثيراً قوياً، وخلعا عليه  
لونا لا يمكن أن يجحد، وحسبنا أن نورد بعض الأمثلة من شعره لننتبين مدى تشبث  
الشاعر بالمعاني القرآنية في بناء صورته، ومن هذه الأمثلة قوله:

خذوا من ترابٍ فيه موضعُ وطنه  
وَأُضْمِنُ أن المَحَلَّ عنكم يَبْعَدُ  
فكلَّ ترابٍ واقعٍ فيه رجله  
فذاك صعيد طيب ليس يجحد  
كذلك فَعَلَ السامريُّ<sup>(٣)</sup> وقد بدا  
لعينيه من جبريل إثْرُ مَجْدٍ<sup>(٤)</sup>

يظهر أثر القرآن في هذه الأبيات ظهوراً لا يحتاج إلى إشارة، ولا يفتقر إلى  
بيان؛ فالصورة كلها مقتبسة مما ورد في سورة طه (٨٦-٩٦) التي يقول فيها الله  
عز وجل: (فكذلك ألقى السامري. فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا: هذا

(١) الذخيرة، ق ١/م ١/ص ١٧٤، وفيات الأعيان لابن خلكان، م ٣/ص ٣٢٧.

(٢) سير أعلام النبلاء، ج ١٨، ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٣) يقول المفسرون: أن السامري كان من قوم موسى عليه السلام، وهو الذي أشعل الفتنة في بني إسرائيل،

إذا أخرج لهم من حلالهم عجلاً جداً له خوار، فقالوا هذا الهكم وإله موسى، تفسير المراغي، تأليف أحمد

مصطفى المراغي، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر (ط ٣) سنة ١٩٦٥م، ج ١٦، ص ١٥٧.

(٤) الرسائل، ج ١، ص ٢٣٢-٢٣٣.

أَمِنْ عَالَمِ الْأَمْلاكِ أَنْتَ أَمْ أَنْسَى	أَبِنْ لِي فَقَدْ أَرَى بِتَمْيِيزِي الْعِي
أَرَى هَيْئَةً أَنْسِيَةً غَيْرَ أَنَّهُ	إِذَا أَعْمَلُ التَّفَكِيرُ فَالْجَرْمُ عُلُوِي
تَبَارَكَ مَنْ سَوَى مَذَاهِبَ خَلَقِهِ	عَلَى أَنَّكَ النُّورُ الْأَثِيقُ الطَّبِيعِي
وَلَا شَكَّ عِنْدِي أَنَّكَ الرُّوحُ سَاقَهُ	إِلَيْنَا مِثَالُ فِي النُّفُوسِ اتِّصَالِي
عَدَمْنَا دَلِيلًا فِي حَدُوثِكَ شَاهِدًا	نَقِيسُ عَلَيْهِ أَنَّكَ مَرئِي
وَلَوْلَا وَقُوعُ الْعَيْنِ فِي الْكَوْنِ لَمْ نَقُلْ	سِوَى أَنَّكَ الْعَقْلُ الرَّفِيعُ الْحَقِيقِي <sup>(١)</sup>

فالأبيات كما هو واضح "تتناول صلة النفس بالجسم، وأن الصورة دليل على ما ورائها والألفاظ المستعارة من الفلسفة وعلم الكلام واضحة لا تحتاج إلى بيان، "الطبيعة" و "الحدوث" و "العقل الرفيع" و "الدليل المرئي" و "الاتصال" كلها من مصطلحات الفلاسفة والمتكلمين وهي شاهدة على مصدر ثقافة ابن حزم وجانب من جوانب تأثره"<sup>(٢)</sup>.

ويقول الشاعر في قصيدة أخرى كان بعض أصحابه يسميها "الإدراك المتوهم":

تَرَى كُلَّ ضِدٍّ بِهِ قَائِمًا	فَكَيْفَ تَحُدُّ اخْتِلَافَ الْمَعَانِي
فِيهَا أَيُّهَا الْجِسْمُ لِذَا جِهَاتٍ	وَيَا عَرَضًا ثَابِتًا غَيْرَ فَنَانٍ
نَقَضْتُ عَلَيْنَا وَجُوهَ الْكَلَامِ	فَمَا هُوَ مُذْلَحَتٌ بِالْمُسْتَبَانَ <sup>(٣)</sup>

ويظهر أن ابن حزم لم يقتصر في شعره على هذه المصطلحات الدينية فحسب، بل تعدى ذلك وأدخل مصطلحات علم الفلك واللغة وغيرها من العلوم ومن الأمثلة التي يظهر فيها تأثره بعلم الفلك قوله<sup>(٤)</sup>:

(١) الرسائل، ج ١، ص ١٠٠.

(٢) دراسة الحب في الأدب العربي، د. مصطفى عبد الواحد، ج ٢، ص ٢٨٨.

(٣) الرسائل، ج ١، ص ١٠٠.

(٤) الرسائل، ج ١، ص ١٠٩.

روضة غناء وشح لبها بالنرجس. والصورة هنا فضلا عن وظيفتها الجمالية، فإنها تؤدي وظيفة تعبيرية لأنها تكشف لنا عما يخالج الشاعر من أحاسيس وعواطف. ويبدو أن الشاعر كان معجبا بهذا اللون من البيان إلى درجة الافتتان، وهذا ما نلمسه في تعليقه على ما أتى به من تشبيه في هذه المقطوعة، وافتخاره بقدرته الفنية على الإتيان بأكثر من تشبيهين في البيت الواحد اذ يقول: "وقع لي في هذه الأبيات تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد. وهو البيت الذي اوله "فكانها والليل" وهذا مستغرب في الشعر. ولي ما هو اكثر منه وهو تشبيه ثلاثة في بيت واحد، وتشبيه أربعة اشياء في بيت واحد، وكلاهما في هذه المقطوعة التي أوردتها وهي:

كَانَ النوى والعَتَبَ والهَجَرَ والرَّضَى    قِرَانٌ وَأَفْدَانٌ وَنَحْسٌ وَأُسْعَدُ  
رثى لغرامي بعدَ طولِ تَمَنُّعٍ    وَأَصْبَحْتُ حَسُوداً وَقَدْ كُنْتُ أَحْسَدُ  
نعمنا على نورٍ من الروضِ زاهرٍ    سَقَتَهُ الغوادي فهو يثني ويحمد  
كَانَ الحيا والمزنَ والروضَ عاطراً    دموعٌ وأجفانٌ وخدٌّ مـورِدٌ<sup>(١)</sup>

ولا يخفى مافي هذه الأبيات من صنعة، وخصوصاً عندما شبه الشاعر أربعة أشياء معنوية وهي "النوى والعنتب والهجر والرضى" بأشياء معنوية أخرى وهي "القران وأنداد ونحس وأسعد" مما جعل الصور تأتي شبه غامضة وغير ممتعة وإن لم تكن بعيدة عن شعور الشاعر وعاطفته، وهي من المعاني الجديدة المبتدعة عنده.

في حين نجد صاحبنا أقدر على توفير المتعة الفنية والمعنوية لدى المتلقي في محاولته الثانية التي يشبه فيها منظر "الحيا والمزن والروض عاطرا" بالدموع

(١) الرسائل، ج ١، ص ١٠٩.



والأجفان والخد المورد" لأن طرفي التشبيه فيها من الأشياء المادية المألوفة الشيء الذي ساعده على رسم الصورة التي كان يهدف إليها من دون غموض أو تعقيد. وابن حزم لا يكتفي بتشبيه أربعة أشياء في البيت الواحد فحسب، بل يذهب إلى أكثر من ذلك فيقول: "ولي أيضاً ما هو أتم من هذا وهو تشبيه خمسة أشياء في بيت واحد في هذه القطعة وهي:

خلوتُ بها والراحُ ثالثُ لَنَا      وجُنحُ ظلامِ الليلِ قد مُدَّ وانْبَلَجُ  
فتاةٌ عدمتُ العيشَ إلا بقربها      فهل في ابتغاء العيشِ ويحك من حَرَجُ  
كأني وهي والكأسُ والخمرُ والدُّجى      ثرى وحيا والدُّرُّ والتَّيَرُ والسَّبَجُ

وهكذا نرى في هذه القصيدة إعجاب ابن حزم بشعره، وإدلاله بمقدرته في التعبير، حتى يصل إلى أمر لا مزيد فيه، كما نرى فيه وقوفه عند الصور اللفظية في الشعر يحتفل بها ويهتم بإبرازها، حتى لو لم يكن لها مدخل في بهاء الشعر وتأثيره<sup>(١)</sup>.

وكأننا بالشاعر قد وجد في هذا النوع من البيان مجالا فسيحا للافتخار والتحدي، ومن أصدق أقواله دلالة على ذلك، ما قاله معقبا على ما أتى به من تشبيه خمسة أشياء في بيت واحد إذ يقول: "فهذا أمر لا مزيد فيه، ولا يقدر أحد على أكثر منه، إذ لا يحتمل العروض ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك..."<sup>(٢)</sup>

والتشبيه في شعر ابن حزم غالبا ما يكون طرفاه من أشياء مادية مألوفة كما يتضح في هذا البيت الذي تتعدد فيه العناصر في تركيب الصورة:

(١) دراسة الحب في الأدب العربي د. مصطفى عبد الواحد ج ٢/ص ٢٩١

(٢) الرسائل، ج ١، ص ١١٠.

كأنها حين تخطو في تأودها قضيبُ نرجسةٍ في الروض مياس<sup>(١)</sup>

فمع أن الشاعر قد حاول أن يفصل بعض الشيء في صورته إلا أنها لم تخرج إلى التعقيد الذي نجده في مثل هذه التشابيه المركبة، فهي عندما "تخطو في تأودها" كأنها قضيب نرجسة في الروض يتبخر. والصورة كما نرى هنا تعكس ذوق مجتمع ابن حزم المتحضر فهو يستقي مادته مما حوله في مجتمعه ولا يتكئ كل الاتكاء على محفوظة من التراث.

ومما سبق نستنتج أن ابن حزم كان يعتمد كثيرا على التشبيه في بناء صوره، وترجمة خياله، حتى أنه كان في بعض الأحيان يحاول أن يأتي بصورة جديدة ويوجد علاقات بين أمور متباعدة مع التدليل على صحة العلاقة بينهما، كما هو الحال عندما شبه أربعة أشياء بأخرى إذ استوقفت كلمة "قران" خوفا من النقد فقال: "ولا ينكرن علي منكر قولي " قران " فأهل المعرفة بالكواكب يسمون بالنقاء كوكبين في درجة واحدة قرانا"<sup>(٢)</sup>

وقد اعتمد ابن حزم في بناء صوره الشعرية على الاستعارة أيضا خصوصا وأنها تعد من أهم الأدوات في التعبير الشعري، لأنها تسهم إلى حد بعيد في تصوير الأحاسيس والمشاعر ، ومن ثم تجسيدها وتشخيصها بحيث تجعلنا ننفعل ونتأثر بما تتطوي . عليه من معان، ومن ذلك قوله:

تَعَلَّمَتِ السَّحَابُ مِنْ شَأُونِي      فَعَمَّتْ بِالْحَيَا السَّكْبَ الْهَتُونِ  
وهذا الليلُ فيكَ غدا رفيقي      بذلك أم على سَهْرِي معيني<sup>(٣)</sup>

(١) الرسائل، ج ١، ص ١٨٣.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ١٠٩.

(٣) الرسائل، ج ١، ص ١٠٨.

واضح أن الإستعارة في هذين البيتين قد أدت دورا بارزا جعلنا نحس بجمالية الصورة وقوة تأثيرها على النفس وذلك عن طريق تشخيص الشاعر للسحائب، وإضافته عليها بعض الصفات الإنسانية، مما جعلها تعي وتحس وتشاركه همومه، وتتأثر لها إلى حد البكاء. كما أن الليل غدا رفيق سهره وأنيس وحدته ووحشته.. ومثل هذا الاهتمام أيضا نجده في قوله:

أَقَمْتُ إِلَى أَنْ جَاعَنِي اللَّيْلُ رَاجِيًا      لِقَاءَكَ يَا سُؤْلِي وَيَا غَايَةَ الْأَمَلِ<sup>(١)</sup>

وهذه الصورة كما ترى تتم عن خيال خصب ومجنح، يبدع الصورة الطريفة، فنلمح من خلالها حالات الشاعر النفسية المتنوعة، والمشاهد الحسية المختلفة مائلة في الذهن والعين.

ويتبدى في استعارات ابن حزم كذلك اللجوء إلى تجسيم المعنوي، وتشخيص المجرد، كما هو الحال في قوله عندما رثى قرطبة ومنازله بحومة بلاط مغيث.

وَيَا دَهْرُ بَلِّغْ سَاكِنِيهَا تَحِيَّتِي      وَلَوْ سَكَنُوا الْمُرُورِينَ أَوْ جَاوَزُوا النَّهْرَ<sup>(٢)</sup>

وقوله:

وَيَا دَهْرَنَا فِيهَا مَتَى أَنْتَ عَائِدٌ      فَنَحْمَدُ مِنْكَ الْعُودَ إِنْ عُدْتَ وَالْكَرَا<sup>(٣)</sup>

ومثل هذه الاستعارات "لا تجري على السنن العربي المفترض، فلا مناسبة أو مقارنة أو مشابهة بين أطرافها المكونة لها"<sup>(٤)</sup> ومع ذلك فإن المعنى المقصود يتضح من وراء هذه الصور، لأنها تنجح إلى البساطة والوضوح وتعرض عن

(١) الرسائل، ج ١، ص ١١٠.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ٣١٢.

(٣) الرسائل، ج ١، ص ٣١٣.

(٤) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب د. جابر عصفور ص ٢١٨.

## الفصل الثالث

### موسيقاه الشعرية

لم يكن ابن حزم مجددا في أوزانه ، بل ظل محافظا في القصيدة على الموسيقى الشعرية التي وضعها الخليل بن احمد الفراهيدي، ولم يصدف أن خرج عنها البتة يقول الدكتور الطاهر احمد مكي " تتبعت البحور العروضة التي استخدمها ابن حزم في كل ما وصل إلينا من شعره، فوجدت أنه استخدم كل البحور المعروفة على أيامه ما عدا بحرین لم يقل فيهما الشعر. وهما المقتضب والمتدارك"<sup>(١)</sup>.

من هنا نستطيع أن نقول إن شاعرنا كان متشعباً بالموسيقى الشعرية القديمة تشعباً يؤكد هذا التمسك بأصول الشعر العربي القديم. ويبدو ان استخدام ابن حزم لتلك البحور "كان متفاوتاً فمن بين (٢٢٢) قطعة وصلت إلينا من شعره قصيدة ومقطوعة، نجد (٩٣) منها جاءت في بحر الطويل و (٣٢) في البسيط، و (٢٠) في الوافر و (١٦) في المتقارب، و (١٣) في الخفيف والسريع، و (١٠) في الكامل. و (٤) في المنسرح، ومخلع البسيط و (٣) في كل من المجتث والمديد، ومرتان في الرمل والهزج واستخدم كلا من المضارع ومجزوء الكامل، ومجزوء الرجز، ومجزوء الرمل، ومجزوء الخفيف، ومجزوء المديد مرة واحدة"<sup>(٢)</sup>.

ويظهر من هذا الإحصاء الشامل للبحور التي استخدمها الشاعر في شعره انه كان يكثر من اختيار بحر الطويل والبسيط بالدرجة الاولى، لانهما - كما اعتقد - من اكثر البحور تحملا لمقاصده، وعرض افكاره، وان كانت العلاقة بين الوزن

(١) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة د. الطاهر مكي ص ٤٠٧.

(٢) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة د. الطاهر مكي ص ٤٠٧.

وموضوع القصيدة من "اعقد القضايا النقدية التي لمّا يستقر النقد منها على رأي او قرار" (١).

اما البحور الاربعة الاخرى ونعني بها: الوافر والمتقارب والخفيف والكامل فان السبب في اكنار الشاعر منها هي الاخرى الى مالها من "رنة موسيقية تعذب في الغناء، وتستجيب للتلحين والتوقيع" (٢).

وقد جاءت الموسيقى الخارجية في معظم قصائد ابن حزم ومقطوعاته ، ملائمة لاغراضه الشعرية وهذا يعود الى علم الشاعر وتمكنه من قواعد الشعر وقدرته الفنية في انتقاء الالفاظ وتنويع القوافي الملائمة، ذات الرنة المثيرة. ونستطيع ان نتبين القدرة الموسيقية عند صاحبنا دون عناء كبير، وعلى سبيل المثال نقرأ هذه المقطوعة

لعلّك بعدَ عتبك أن تجودا      بما منه عتبتَ وأن تزيدا  
فكم يوم رأينا فيه صحواً      وأسمعنا بآخره الرعودا  
وعاد الصّحو بعدُ كما علّما      وأنت كذاك نرجو أن تعودا (٣).

كما يبدو فإن هذه المقطوعة يتوفر فيها كل ما يتطلبه الشعر الغنائي من قدرة موسيقية، مما يجعل القارئ يحس فيها بصوت الموسيقى صوتاً مطرباً متصلاً وغير منقطع، وبمعنى آخر فان الإيقاع فيها مستمر، والفضل في ذلك يعود

---

(١) بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء النقد الحديث). د. يوسف حسين يكار، دار الاندلس للطباعة

والنشر والتوزيع - بيروت (ط٢) ص ١٦١

(٢) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة الطاهر مكي ص ٤٠٧.

(٣) الرسائل ، ج ١، ص ١٩٧-١٩٨.

إلى القافية التي اختارها الشاعر لهذه المقطوعة ؛ فحرف الدال كما هو معروف من الأصوات المجهورة ورنينها قوي، إلى جانب أنها صوت انفي رنان (١) .

ثم هناك استخدامه للجناس كما في تجودا، وتزيدا، والرعودا، ومثل هذه الألفاظ بما فيها من تشابه في الوزن والصوت تعد من أقوى الأدوات في توفير المتعة الموسيقية في أبيات الشاعر، فضلا عما في بحر الوافر التي جاءت عليه الأبيات من نغم شجي، وغنائية شفافة.

وفي ختام دراستنا لخصائص ابن حزم الفنية، يتوجب علينا أن نقول. إن ابن حزم طرق موضوعات شعرية عديدة اتسمت في مجملها بقوة البناء وحسن الأداء إلا أنه لم يكن يصدر في معظمها عن عاطفة صادقة، وينطق عن إحساس وانفعال، وقد أدلى هو نفسه بذلك في بداية كتابه طوق الحمامة حيث قال: "سلورد في رسالتي هذه أشعارا قلتها فيما شاهدته، فلا تنكر أنت ومن رآها علي رأيي سالك فيها مسالك حاكي الحديث عن نفسه، فهذا مذهب المتحليين بقول الشعر، وأكثر من ذلك فإن إخواني يجشمونني القول فيما يعرض لهم على طرائفهم ومذاهبهم (٢) .

وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد جانبا لا بأس به من شعره قد أودعه شتى أحاسيسه، وضمنه مختلف مشاعره الصادقة، فحلّق به معنى ولفظا، كما هو شعره في "نعم" وفخره بنفسه وزهدياته.

(١) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة الطاهر مكي ص ٤٠٧.

(٢) الرسائل، ج ١، ص ٨٧.